HOUSE OF CONJURING

مأخوذة عن
وقائع حقيقية

رواية

منزل التعويذة

مروى جوهر

دار دوّن





منزل التعويذة



مروى جوهر: منزل التعويذة، رواية

الطبعة العربية الأولى: يناير ٢٠١٩

رقم الإيداع: ٢٥٤١١ /٢٠١٨ - الترقيم الدولي: 0 - 126 - 806 - 977 - 978

عضو اتحاد الناشرين المصريين.

عضو اتحاد الناشرين العرب.

القاهرة مصر

Mob +2 - 01020220053

info@dardawen.com

www.Dardawen.com



مروى جوهر

منزل التعويذة

روايـــــة







إهــــــداء

إلى كل الأرواح الجميلة التي أثْرت حياتي وأثَّرت فيها...

إلى هذا الخط الرفيع الفاصل بين روحي والجنون..

أشكركم وأرجوكم الصمود.





(١)

«آدم»

في الثالثة فجرًا شعرت بتلك اليد تدفعني برفق مرة أخرى، قمت مسرعًا وأضأت الغرفة بالكامل لكنني لم أجد أحدًا، خرجت إلى غرفة المعيشة وإلى بقية الغرف، لم أجد أحدًا، بقيت متيقظًا في انتظاره ربما يظهر في أية لحظة حتى أشرقت الشمس، لكنه لم يأتِ، عدت إلى النوم محاولًا سرقة ما بقي لي من ساعات قليلة حتى موعد الاستيقاظ الإجباري صباحًا، لكن طار من عيني النوم وبقيت أتذكر رغمًا عني تلك الأيام الرهيبة والأحداث التي دارت في منزل الباسوس[1]، في أوائل صيف ١٩٩٩.

كان قرار أبي بالرجوع إلى «مصر» قرارًا صادمًا، خاصة أنه لم يُمهد الأمر، أخبرني بالقرار أثناء احتفالي وسط أصدقائي بعيد ميلادي الثالث عشر، لم يبالِ بي ولا بأصدقائي الذين قضيت معهم معظم أيام حياتي، ولا بحياتي كلها هُنا في دولة الإمارات التي ولدت بها، قضيت سنوات قليلة جدًّا من عمري بمصر، إلا أن المعظم كان هنا في الإمارات، وبقيت أتساءل: ماذا سأفعل في

---

(١) باسوس إحدى قرى مركز القناطر الخيرية التابع لمحافظة القليوبية بجمهورية مصر العربية.



مصر؟ لا أتذكر حتى أقراني هناك، كما أننا لن نستقر في القاهرة، إنما في منطقة تسمى «الباسوس» تبعد عن القاهرة نصف ساعة تقريبًا، قالها أبي بحماس وكأننا سننتقل إلى «ديزني»!

زُرت مصر مرتين على مدار السنوات التي تركناها فيها ولم أنسجم في تلك الزيارات، لا أذكر من بيتنا في «باسوس» إلا ضخامة الفيلا التي يتحدث أبي عن تاريخها القديم جدًّا بكل فخر أمام أصدقائنا في الإمارات، وعمرها الذي تجاوز مائة وخمسين سنة، وعلى الرغم من ذلك كانت بالنسبة لي مكانًا لا يغري إطلاقًا بنعيش، ولم أكن أعلم لذلك سببًا حتى عدنا إليها ذلك الصيف.

من يُصدق أن الكهرباء لا تزال تنقطع ونحن في نهاية التسعينيات ونُوشك أن نبدأ الألفية؟! لا أعلم هل تغير الأمر أم أنني سأعاني؟

في كل الأحوال لا أملك إلا الطاعة، خاصة عند صدور قرار السيد «إبراهيم الخولي»؛ أبي رجل الأعمال المشهور في مصر و«باسوس»، فهو فرد من أكبر عائلات البلدة، وفي الإمارات أيضًا؛ لما حققه من نجاح كبير في عمله، لم أجرؤ على التحدث بما يدور في نفسي من تخوف وقلق لأبي، كانت شخصيته صارمة يصعُب التعامل معها، وأمي لم تكن تملك من أمرها شيئًا، أو رُبما



لا تهتم كثيرًا أين تعيش، فأي مكان ستعيش فيه سيكون مرفهًا كما تعودت، فهي أيضًا تنتمي لإحدى أكبر عائلات «باسوس»، ثم إنها تتأقلم بسرعة غريبة على أي شيء جديد، لم أستطع البوح بأنني لا أحب الفيلا التي يتحاكى عنها أهل البلدة، حتى إنها أصبحت علامة مميزة للغرباء ليهتدوا إلى وجهتهم.

بسرعة كبيرة تمت إجراءات النقل وتصفية غالبية أعمال أبي، هكذا ببساطة تتبدل حياتك وأحوالك ولا تملك من أمرك شيئًا، لمجرد أنك قاصر وتحت السن القانونية التي تؤهلك أن تتولى مصيرك بنفسك، وحتى لو كان عمري عشرين عامًا، ما كنت لأفعل شيئًا دون موافقة أبي ومباركته، تم شحن أشيائنا الكثيرة وحقائبنا إلى مصر قبل يومين من السفر ولم يتبقَّ إلا أشياء بسيطة شخصية، سألت نفسي لماذا نبني آمالًا ونخطط لمستقبل لا ندرى ولا نضمن منه شيئًا؟ حتى نحن نتغير وغير باقين! إذن لماذا كل هذا التعب والشقاء والأحلام؟ ولِمَ كان السفر من البداية؟ وما السر في العودة الآن؟ بعد هذه الأسئلة التي لم أستطع الإجابة عنها، استسلمت في هدوء أو لامبالاة وودعت المنزل الأنيق الذي شهد على أحلام كثيرة وطفولة أحببتها كثيرًا، ثم غادرت معهم إلى المطار، إلى بلدنا «مصر».

عند إقلاع الطائرة أحسست أنني أترك ورائي سنوات



أحببتها، تذكرت أقرباءنا الذين كانوا دومًا يقولون إن العمر مهما طال قصير، وإن الذكي من يستمتع باللحظة الحالية، فقررت أن أستغل كل الفرص المُتاحة لأستمتع بوقتي كما أريد، نظرت إلى الخليج بالأسفل ووعدته بزيارات أخرى قريبة، هذا ما أستطيع أن أطلبه من أبي، لم أشعر بالهبوط الذي بدا سلسًا لأنه لم يوقظني من نومي، ابتسمت أمي الجالسة بجواري وعيناها تلمعان وقالت: «حمد الله على السلامة يا آدم».. وصلنا «مصر».

كانت سيارة فارهة تقف في استقبالنا لتُقلنا إلى باسوس، لم أشعر بالطريق من كثرة التفكير، توقفت السيارة أمام فيلا فخمة تطل على النيل مُباشرة، شعرت للحظة أنني أراها لأول مرة، فيلا الباسوس.

فتح الخفير «أبو محمد» البوابة الحديدية السوداء الضخمة، عبرت السيارة ممرًّا مُهدًا وسط الحديقة الكبيرة، تنتشر فيها مقاعد خشبية بنية اللون، ثم توقفت أمام باب الفيلا الرئيسي، بسرعة فتحت «أم محمد» زوجة الخفير الباب قبل وصولنا ووقفت وراءه مُبتسمة، كانت تنطق بمئات الكلمات المرحبة والمهنئة في الدقيقة الواحدة، بادٍ عليها الفرح الشديد الذي شككت في صدقه، ثم أطلقت زغرودة عالية احتفاءً بدخولنا، دخل وراءنا «أبو محمد» وابنه «مروان» الذي كان في مثل سني تقريبًا حاملين حقائبنا،



سألتُ أمي: لماذا يطلقون عليها «أم محمد» وابنها الكبير يُدعى «مروان»؟ أليس لهم أسماء تخصهم؟ فأجابت أن ابنهما البكري «محمد» توفي صغيرًا في نفس يوم مولده إثر حادث، لذلك يُحبذان هذه الكُنية تخليدًا لذكراه.

تأملت بهو الفيلا الواسع المطلي باللون الأبيض، يقابل الباب الخشبي الرئيسي مباشرة منضدة مستديرة خشبية عتيقة تستقبلك في وداعة عليها زُهرية بها ورد صناعي ومفرش أبيض كبير وأنيق، عبرت هذه المساحة الودودة، ثم رأيت على اليمين مطبخًا هائل المساحة، بداخله باب يُفتح على درجات قليلة للأسفل تصله بالحديقة.

كان أبي قد حرص على إعادة تأسيس الفيلا من الداخل على أحدث النماذج في الخليج، فبجانب المطبخ حمام واسع أنيق، ثم سُلم خشبي عتيق بعده مباشرة ليصلك بالدور الثاني.

التفت بعيني قبل أن أتحرك فلمحت سلمًا صغيرًا موارًى يهبط للأسفل، إلى قبو الفيلا، فلم أعره انتباهًا، على جهة اليسار من مدخل البيت نزلت بضع درجات من الرُّخام فوجدت صالة استقبال فخمة، كل رُكن بها يوحي بالأصالة والرقي، كانت الفيلا فخمة حقًّا، لكني لم أعلم ما سر هذا الثقل الذي جثم فوق صدري فور دخولها، وكانت الأحداث التي دارت في الأيام



اللاحقة دليلًا على صدق قلبي فيما أحس.

كانت غرفتي تقع مُباشرة إلى جوار السلم الخشبي، والحقيقة أنها كانت غرفة مريحة وواسعة، بها فراش كبير في المنتصف تمامًا، يحده من جهة اليسار دولاب كبير وعتيق يسمح باختفاء شخص بالغ داخله بالكامل وبأريحية كبيرة، وأمام الدولاب منضدة تحمل تليفزيونًا صغيرًا، ثم يقع بجانبه مكتب وكرسي صغير في أحد الأركان، بجانب المكتب كان باب البلكونة المطلة على الحديقة.

خرجت لأنظر منها وكأنني أستكشف البيت الذي لم يُهمل أبي ترميمه وتأثيثه أبدًا، ثم صعدت أمي وأبي على الدرج فأصدر صريرًا عنيفًا ما زلت أتذكره، وقبل أن يصلا لغرفتها قاطعت أمي شرودي وألقت تعليماتها الهامة -بالنسبة إليها- ثم اختفت في غرفتهما بالطابق العلوي.

الطابق الثاني لا يضم سوى غرفتي نوم: غرفة للضيوف والأخرى لأبي وأمي، وحمام صغير وتراس به بعض الكتب الصغير والكراسي وقليل من أصص الزرع بها نباتات ظل مهملة.

حاولت في بداية أيامي أن أحب البيت ولم أفلح، كنت شخصًا عمليًا وأفضل الراحة ووسائل الترفيه الحديثة، ماذا



سوف أفعل وسط النيل والترع والذباب نهارًا والبعوض ليلًا؟ لا أعلم ما الجميل والمُبهر في ذلك!

أما الشيء المقزز حقًّا فكانت رائحة العفن التي تسيطر على البيت ولا تذهب، رائحة أشبه برائحة الموت، في بادئ الأمر ظنته أمي فأرًا أو ثعبانًا ميتًا، وارتعبت من كلمة ثعبان هذه عندما سمعتها أول مرة، أيمكن حقًّا أن يوجد بالمنزل ثعابين؟ وقالت أمي دون مبالاة:

- جايز، ما تنساش إننا في بلد زراعة.

وقد روت «أم محمد» أنهم يخرجون فئران وثعابين من البيت كلما قاموا بتنظيفه، طلبت أمي منها إعادة تنظيفه مرة أخرى ففعلت، إلا أن رائحة العفن ظلت مُسيطرة، فرجَّح أبي أن مصدر الرائحة في الأغلب هو حيوان ميت ومتحلل في الحديقة، فكلما هب نسيم جلبها إلينا.

لم أرتح لتفسيره هذا، وظل الثقل الجاثم فوق صدري يزيد مع كل ليلة، حتى الليلة الأولى التي سمعت فيها صوت أنين طفل صغير آتيًا من القبو.

* * *



(٢)

«نوح»

«لكل باب مفتاح، وقيل إن مفتاح باب العلم حُسن السؤال وحُسن الإصغاء».

عبارة سمعتها أثناء مروري بجانب أحد المساجد أثناء خطبة صلاة الجمعة ذات مرة، سألت والدي من قائلها فهز رأسه نافيًا علمه بها، كان شديد الحرص على تعليمي كل العادات والتقاليد في سن صغيرة، كما حرص على أن أظل داخل جدران البيت لفترة كبيرة من عمري؛ لخوفه الشديد والمبالغ فيه عليّ.

خُضت عدة محاولات بائسة للتحرر، استعنت فيها بأمي بغير رجاء، كانت تُشدد في كل مرة على ضرورة الانصياع لأوامر أبي دون مناقشة، تتبع منهجه بدقة في تربيتي عدا بعض الأمور، تنفذ أوامره بحذافيرها على الرغم من كونها شخصية قوية وعنيدة، إلا أنها تتبعه اتباع المسحور وكأنه قد سيطر عليها تمامًا، لم أعلم أهي طاعة تنبع من حُب أم خوف أم لإرضاء الله؟ لذلك لم يكن لي أصدقاء إلا أقل القليل من العائلة،العائلة فقط



لمزيد من الأمان كما يقول أبي، لم أعص له أمرًا قط حتى كبرت وبدأ يتقبل ضروريات الحياة التي تفرض علي أن أخرج وأعيش كأقراني حياة طبيعية.

تحترم عائلتي كل الموروثات والقوانين وتطبقها وإن أصبح بعضها بائدًا، المُستجدات مشكوك في أمرها، كُنت أسمع أقراني وقد ملأهم الشغف نحو كل جديد، لكني لم أملك رفاهية هذا الشغف إلا بعد أن أستأذن أبي، وفي الغالب لا يأذن؛ لذلك لم أستطع أن أدع موروثاتي وشأنها، ولم أستطع أيضًا أن أُظهر غير الاحترام لكل من يُحييها ويداوم عليها، لكنني حافظت على تجنب كل ما يُغضب الله. هُنا في عائلتنا لا مجال للمزاح، يجب أن تنشغل بما يفيدك، يجب أن تُساعد العائلة فيما يقومون به مهما بدا لك هذا العمل غير مُفيد، دائمًا يُذكرني أبي أننا من علية القوم وأشرافهم، وأن أجدادي كان لهم من الخير الوفير في مصر والشام، وأثر فضلهم معروف في دول الخليج؛ لذلك لا بد من اختيار صحبتي بدقة شديدة، والأهم أن تكون من العائلة.

في فيلا كبيرة بمنطقة «باسوس» تتوسط مزرعة ضخمة تطل على النيل مُباشرة، نشأت أنا «نوح عبدالله».. زُرعتْ بالحديقة الكثير من أشجار الفاكهة حتى أصبحت وكأنها غابة استوائية، سور ضخم من الحجارة الكبيرة تدور مُتراصة حول الفيلا،



يعلوه عدد كبير من المصابيح الكهربائية التي تُنار ليلًا، يربط السور ببعضه باب كبير من الحديد في مدخل الفيلا الرئيسي من جهة النيل، وباب حديدي آخر أصغر في خلفية الفيلا يصلك بطريق إلى قلب باسوس.

الفيلا قديمة المعمار، تقع في منتصف الزراعة تقريبًا، لتُشكل منظرًا لن تنساه من روعة جماله، خاصة إذا كنت في وقت الفجر.

«كُل الأشياء الجديدة مثيرة، إلى أن نُجربها، نرتشف رحيق مُتعتها الأولى، ثم نشرب منه بنهم، فيقل الشغف تدريجيًا، ثم نعتاد عليها فتُصبح عادية، ثم مُملة لأنها أصبحت مُتاحة أو في حيازتنا، تنطفئ شرارة الفضول ويخفت الضوء عنها شيئًا فشيئًا، فنهجرها في ضجر لنبحث عن تجربة جديدة، هكذا حال الدُنيا فلا تبتئس».. هكذا كان يردد أبي عندما أتحدث عن أمنية تجربة أي شيء جديد، دون أن يعطى للتجربة حقها من قيمة وعلم وخبرة.

في شبابه قرر أبي الاختلاط بعائلات مرموقة تناسب مكانة عائلته ونسبه الذي ينحدر منه، كان أبي «عبدالله» رجلًا بهي الطلعة، طويلًا وضخمًا، له شعر بني أملس، وعينان واسعتان زرقاوان كالبحر العميق تعطيان نظرته عُمقًا وحدّة وصلابة، تقول جدتي لأمي إنه يشبه جدي إلى حد كبير، كما أشبههما



أيضًا.. وكان أبي لا ينخرط في مجتمع إلا وأحبوه، نجح في تكوين صداقات عديدة، ثم تعرف إلى أمي «سارة» في إحدى الحفلات الصاخبة الشبابية، وكما تبدأ دائمًا العلاقات، انجذاب... فضول.. شغف.. اهتمام.. تعود.. تعلق.. تردد ثم حب، ثم حدث ما حدث من تسلسل مُكرر عبر الأزمنة لا ابتكار فيه فجئت أنا إلى الدنيا دون مشورتي.

كنا نعيش في باسوس، وكنت أحب هذا المكان دون غيره رغم قلة تنقلاتي خارجه، ورغم أنني لم أتنقل بباسوس كثيرًا رغم أنها ليست شاسعة المساحة، لكني أحببت البيت وارتحت إلى هدوئه المريح كثيرًا.

المنزل دائمًا هادئ وكذلك كانت عائلتنا. لم يُعكر صفو الهدوء إلا بُكاء أطفال خفير الفيلا وعُلو صوت زوجته في بعض الأحيان، رجل طيب مُطيع لأوامر أبي وكذلك كانت زوجته مُطيعة، تُذكرني بأمي في خنوعها.

وكان أكثر ما أهواه هو النيل وصفحته الرائقة المريحة للعين، أدمنت سحر النيل، سكونه ومكره، دواماته الصغيرة التي لا تأتي تباعًا، حاولت أن أتعلم منه الصبر والتأمل، تمنيت أن أتجول كثيرًا فيه عبر مركب بمفردي ليلًا على ضوء القمر، لكن رفض أبي القاطع جعلني لا أحدث نفسي بالفكرة مرة أخرى.



كانت الأحداث رتيبة إلا من بعض المشاحنات بين أبي وأمي أحيانًا، والتي ينتصر فيها أبي على الدوام، تنقضي الأيام على مهل في روتين يومي، أحيانًا يقطعه بعض الزيارات المعلومة مُسبقًا من أصدقاء أبي ومعارفه من العائلات المرموقة، أو بعض الزيارات المفاجئة من أصدقاء أمي والتي لم يكن أبي يحبذها على الإطلاق، ومع الوقت وتكرار المشاحنات بسبب عدم رغبته في الاختلاط انقطعت الصلات تدريجيًّا حتى أصبحت أعيش أنا وأمي في عُزلة تامة عن عالمنا تقريبًا.

أقبل الليل أثناء انشغالي بالتفكير وسمعت صوت ضحكات بعيدة، سألت بعض الخدم فأجمعوا على عدم سماعهم شيئًا، خرجت خلسة لأعرف مصدرها؛ فأنا أحب أن أستمع لأصوات الساهرين والجميع في سكون. فعرفت بأمر الجيران الجدد. فابتهجت وقلت: ربما يكون لي نصيب في صحبة قريبة. ولم أكن أعلم أنها بداية جديدة لأيام صعبة وقاسية.

***



(٣)

«آدم»

تشجعت ليلًا وخرجت أتجول في الحديقة بمفردي بعد أن تملكني الملل، أنا شخص مباشر وأكره الفصول الانتقالية، أحب الشتاء أو الصيف، الأبيض أو الأسود، أحب الشيء أو نقيضه، لكنني أحب صراحتهما، لا أحب مياعة الأشياء حتى ولو كانت فصولًا كالربيع والخريف، كُنت أحاول جاهدًا استقبال فصل الربيع، لكن الهدوء في الحديقة يجعلني أسمع أصواتًا كثيرة، حفيف الزرع وأصوات الضفادع، وقلت لنفسي: «أنحن في الأحراش أم ماذا؟ ما كل هذه الأصوات؟».

كانت أشياء لم أعتد عليها أثناء فترة إقامتي في الإمارات، ومنذ أن انتقلنا إلى «باسوس» وأنا أشعر كأنني في غابة، أتمنى حدوث أي شيء يُذهب ذلك الملل بعيدًا، صرت أحلم بمغامرة مثيرة تمحو هذا الملل بأي طريقة.

صوت ضحكات أبي وأمي يأتيني مُتتابعًا على فترات قصيرة من الدور العلوي، فيما يتناولان العشاء في التراس على النيل كما



تُجبان، أو بالأحرى يهربان من رائحة العفن في البيت، في بادئ الأمر كانت تنتشر في البيت كله، لكن الغريب أنها بدأت تنتقل معنا في أماكن تواجدنا في البيت! تتحدى في ثبات جميع روائح المُنظفات النفاذة، تقف صامدة أمام كل مُحاولات النظافة المُمكنة.

أنهى والداي عشاءهما ثم دخلا الغُرفة فخفتت أصواتهما وخفتت كذلك أغلب أنوار البيت، الهدوء هُنا يجعلني أسمع دبيب النمل، كُنت قد سرقت من سجائر أبي دون أن يشعر سيجارة أو اثنتين لن يشعر بهما، أمسكتها بيدي دون أن أشعلها، وواصلت السير في الحديقة فوجدت الباب الحديدي مُواربًا، ناديت الخفير فلم ألحظه في مكانه، في طريقي إلي غرفته رأيت شخصًا يدخل من الباب الحديدي لكنه لم يرني، أخيرًا أرى أشخاصًا آخرين، كان يبدو أكبر مني سنًّا بقليل، ينم مظهره عن نفس مستواي الاجتماعي، وكان هذا مهمًّا بالنسبة لي، تعلمت من والدي تلك الأمور، فأصبحت أنظر إلى ما يرتديه الناس لأعلم مستواهم المادي والاجتماعي، ذهبت إليه وسألته:

- بتدور على حد؟

انتفض كما لو كان لصًّا ينوي سرقة المكان، ولم يتوقع أحدًا، لكن هيئته لا تُوحي بذلك،نظر إليّ وحاول أن يبتسم ولم يُجبني، أعدت سؤالي عليه:



- بتدور على حد؟ أساعدك؟

نظر إلي مرة أخرى سريعًا نظرة مُتفحصة ثم أجاب بتلقائية:

- كنت بدور على حد أولع منه، بس واضح إن الغفير مش موجود..

نظرت إلى سيجارة بيده غير مُشتعلة ووجدتها من نفس الماركة التي يدخنها أبي، نظرت إلى غرفة «عم محمد» فأردفت:

- هو شكله فعلًا مش موجود، مش عارف راح فين؟ بابا منبه عليه ميسيبش باب الفيلا مفتوح! كويس إنه مشافوش.

نظر إلى الحديقة وإلى الفيلا نظرة شاملة وتحدث في ود:

- معروف إن «إبراهيم الخولي» راجل دقيق جدًّا.

أعجبني ما سمعت منه فأردفت في غرور حاولت أن أخفيه:

- إنت تعرف بابا؟

- إنت «آدم».. مظبوط؟

أُعجبت أكثر لمعرفته باسمي، وابتسمت في غرور واضح مُردفًا:

- إنت عارف العيلة كلها بقى!

- مين في «باسوس» ميعرفش عيلة الخولي؟

مرت لحظات ارتسمت ملامح الفخر على وجهي وكأني إقطاعي ابن إقطاعي أصيل، قاطع لحظاتي المُفضلة وأردف كأنه



نسي شيئًا ثم قال:

– أنا «نوح».. نوح عبدالله. جارك هنا مش بعيد.

– أهلًا بيك.. وأنا «آدم الخولي» زي ما انت عارف.

ابتسم «نوح» ابتسامة عريضة في ود، فكان عرضي بالدخول للبيت وقد ارتاحت نفسي إليه:

– طيب ما تدخل نقعد شوية.

– لا معلش دلوقتي صعب، الوقت اتأخر على إننا ندخل البيت، وبعدين إحنا ممكن نتقابل أي وقت..إيه رأيك؟

– يا ريت ده أنا قاعد هنا الملل هيقتلني.

ضحك «نوح» بصوت عالٍ وأكمل:

– أكيد هنا مش زي الإمارات.

اختفت بسمتي ونظرت له مُتوجسًا:

– حتى دي عارفها كمان؟

نظر إلي في ثقة وأردف:

– يا «آدم» إحنا هنا في «باسوس»، كل حاجة بتعملها هتتعرف، وبعدين ما البلد كلها عارفة خط سيركم، من قبل ما تسيبوا مصر حتى.. كنتو فين وجيتو إمتى وليه، متستغربش.

اندهشت مما قال وسألت:

– يا سلام.. وفين خصوصية الناس هنا؟



أطلق "نوح" ضحكة عالية أخرى ونظر إلى شُرفة والدي فوق..

- لأ إنت كده شكلك عشت بره كتير ومحتاج تفهم الدنيا هنا ماشية ازاي، عمومًا خليني أشوفك تاني، بالنهار بقى.. كفاية كده بدل ما الناس تصحى.

- ما تخليك معايا شوية ولا انت وراك حاجة؟

غلبني الفضول لأتعرف على شخصيات جديدة، وكنت قد بدأت أعتقد أننا سنصبح أصدقاء سريعًا، طلبت منه أن يبقى على غير عادتي مع من أقابله لأول مرة، لكنني كُنت في أشد الحاجة إلى صديق في مثل سني أو سن مُقاربة أتحدث معه ولو لوقت قصير؛ لذلك بينما كُنت أتحدث مشيت نحو مقعد خشبي وسط الأشجار لنجلس، ليمشي معي ويجلس رغمًا عنه وقد كان، سار «نوح» إلى حيث اتجهت، لكنه لم يجلس معي.

نظر «نوح» بقلق ناحية البيت والباب الحديدي الرئيسي للفيلا وأردف في تردد:

- معلش.. أهلي ممكن يقلقوا.. وكمان مش عايز أقلِق أهلك.. الوقت اتأخر فعلًا.

- طيب، أنا مش هغصب عليك طبعًا، لكن بصراحة زهقان ومفيش حتة هنا أروحها ولا أصحاب.



بدا عليه التعاطف وجلس على طرف المقعد الخشبي، تفقدت المكان حولي لأتأكد من عدم وجود أحدٍ ثم أشعلت سيجارتي، نظر إلي وابتسم فأشعلت سيجارته هو الآخر، وبدأنا ننفث الدخان أمامنا، ثم سألني في اهتمام:

– ملكش أصحاب في «باسوس» خالص؟

– واحد بس، اسمه «حسن».. بس هو مع أهله دلوقتي في القاهرة، بيجوا كل أسبوع وممكن يقعد شوية، وعمومًا آخر كام سنة مكنتش بشوفه إلا في زيارات قليلة، بس أنا كلمته وعرفته إننا استقرينا هنا خلاص وسِبنا الإمارات، فأكيد هيعدي أول ما يقدر.

– معلش أنا حاسس بيك وفاهم انت تقصد إيه، بكرة تاخد على الجو هنا وتحبه.

نظر «نوح» للسماء وسرح للحظات كأنه يتذكر شيئًا ثم قام من مجلسه فجأة وقال:

– معلش بقى لازم أروح دلوقتي حالًا.. مبسوط إننا اتقابلنا.. هنتقابل تاني أكيد.

– مش هقولك خليك تاني بعي، ابقى عدي عليا.. عندي بلاي ستيشن ممكن نلعب سوا، أو حتى نخرج.

– تمام. تمام.. أنا الصبح ببقى مش فاضي علشان الدراسة،



خلينا بعد الضهر.

- اتفقنا.. بس مش عايز أعطلك عن حاجة برضه.

ابتسم «نوح» وبدا عليه الود وأردف:

- لا أنا منظم الدنيا، هجيلك متخافش، إنت بتدرس فين يا آدم؟

- بابا قدم ورقي في مدرسة في القاهرة.. لكن لسه بدري على الدراسة.

- هتنبسط في القاهرة لو بتحب الدوشة..

- يا ريت.. طيب خد رقم تليفون البيت واوعدني بقى انك تيجي تاني.

أعطيته رقم الهاتف الأرضي شفهيًا، أتمنى لو أمتلك مثل هذا الهاتف المحمول الذي يملكه أبي ولا يتحدث فيه إلا في حالات الطوارئ! رحل «نوح» ودخلت إلى الفيلا وأغلقت الباب، نظرت إلى الورد الصناعي على المنضدة أمامي ولاحظت أن «أم محمد» قد بدلته بورد طبيعي، رن جرس الهاتف فأجبته، عندها سمعت صوت «حسن» ففرحت بشدة.. يبدو أن الأصدقاء سيجتمعون قريبًا وسيرحل الملل، قلت لحسن:

- جهز نفسك لقعدات البلاي ستيشن بقى.

- أنا جاهز يا عم آدم.. أبويا وأمي خارجين بكرة تعالَ



نخليها عندي..

- مش مهم عندي عندك.. المهم ميشوفوناش علشان الدوشة..

- اتفقنا.

أغلقت الهاتف وعند التفاتي خُيل إلي أنني رأيت كلبًا أسود ضخمًا يصعد السلم الخشبي فكاد قلبي يتوقف! مشيت على أطراف أصابعي كي لا أُحدث صوتًا، ووجدت أنه لم يعد موجودًا، تفقدت المكان فلم أجد شيئًا، ثم رأيت الورد وقد تبدل إلى صناعي مرة أخرى! اقتربت منه لأتأكد فوجدت أنه صناعي بالفعل، لا بد أن عيني خانتني أو أنه مصنوع بحرفية شديدة، صعدت بضع درجات على السلم ونظرت لأعلى فإذا بي أرى رأس الكلب يطل عليَّ من فوق ويحدق بي! ارتعبت ولم أدرِ ماذا أفعل. تمالكت نفسي وناديت أمي بصوت عالٍ، لكنها لم تجبني، ناديت مرة ثانية بصوت أعلى فسمعت صوت غرفتها يُفتح ورأيت النور يضيء الدور العلوي ثم اختفى وجه الكلب!

سألت أمي بصوت يغلبه النعاس:

- أيوة يا آدم.. كل ده صاحي؟

صِحتُ بصوت عالٍ:

- ماما.. في كلب كبير عندكم فوق!!







(٤)

«فوح»

في يوم قريب كُنت بصحبة «آدم» نجلس معًا في مكان لا أذكر منه إلا مياهًا جارية وأشجارًا كثيفة وطقسًا جميلًا، جلسنا بالقرب من المياه نتحدث، نضحك ونلعب، ثم جرى حديث طويل بيننا لا أتذكره، ثم رأيت ابتسامته تختفي تدريجيًّا،نظر إلي وقد تبدلت هيئته وفجأة وجدته وقد تحول إلى مسخ مُخيف، صرخت بشدة بينما ضحك آدم ضحكة عالية وأوشك أن يؤذيني دون أن أفعل له أي شيء يستحق الأذى، بعدها رأيت أبي وبعض حراسه يأتون لحمايتي، طار «آدم» فجأة في الهواء إلى مكان عالٍ بالسماء واختفى تمامًا.

هنا استيقظت فزعًا مما رأيت وقد خُيل إلي أني لمحت خيال أبي بالغُرفة! وأتت أمي مُهرولة لتطمئن علي، لابد أنني أحدثت صوتًا عاليًا أثناء الحلم المفزع هذا، استعدت توازني على مهل وطمأنتها علي وطلبت منها أن تذهب لتستريح.

جلست شاردًا أفكر فيما رأيت، ما سبب هذا الحلم، أم أنها



رؤيا؟ هل من الممكن أن يؤذيني «آدم» دون سبب؟ ولماذا رأيته بهذه الهيئة الشريرة؟ لا يوحي منظره لي أنه شخص شرير.. لا أعتقد هذا بل أعتقد أنه سيحميني إذا صرنا أصدقاء وتطلب الأمر ذلك، علمت أن والديه اضطرا أن يتركاه وسيسافران لعام كامل قريبًا، وسيتركان آدم وحده بالمنزل مع البواب وزوجته!

أخذت أفكر فيما نستطيع أن نفعله معًا على سبيل المغامرة، ثم توجه تفكيري لمنطقة أخرى.. لماذا لا يفعل أبي مثلما يفعل أبو آدم؟ لماذا لا يثق في قدرتي على الاعتماد على نفسي؟ جزء مني شعر بالغيرة لكونهم اعتبروه رجلًا وهو في الثالثة عشرة! أما أنا فيعاملونني كطفل، متى سأصبح مسئولًا في نظر أبي؟ على كل حال، الجزء الآخر مني شعر بالفرحة لغيابهم، الآن أستطيع أن أقابل «آدم» كثيرًا دون عناء إزعاجهم،أثناء تأملي لحالي وحال «آدم» لم أنتبه لدخول أبي الغرفة، قُمت واقفًا احترامًا وفزعًا فلم أدرِ بوجوده.

نظر إلي أبي في شك وقال:

- محسّتش بيا خالص يا «نوح»! إيه اللي شاغلك كده؟

- أبدًا مفيش حاجة.

- والدتك بتقول انك صحيت من النوم مفزوع..

- لا أبدًا.



- بتقول شكله كابوس اللي خلاك تتفزع؟

- تقريبًا كابوس..

ازدادت نظرة الشك في عين أبي.. جلس واسترسل في هدوء:

- عارف يا نوح.. أنا كان نفسي يبقى لك اخوات أكتر علشان نبقى عزوة، لكن بعد ما جيت اكتشفت إني بخاف عليك بشكل كبير، وده خلاني أستبعد الفكرة، عمومًا أنا بحذرك تتعرف على أي حد غريب عننا.. أي حد بره العيلة ممنوع إنك تعرفه.

قاطعته مُتعجبًا:

- ليه؟!

- أنا خايف عليك. خايف من فضولك لأنك ممكن تنخدع في حد وتحبه وتثق فيه. والمصيبة انك تفتكره صديق، وهو في الحقيقة عدو ممكن يؤذيك.

- لو حبيت حد ووثقت فيه تبقى مشكلة؟!

- تاني الحب.. بص يا نوح. الحب في العموم مجرد فكرة إحنا اللي بنكبرها لحد ما تملا علينا حياتنا، والفضول أكبر عدو لينا، يكبر الفضول ويتحول لشغف وبعدين تتعود ويبقى إدمان، والإدمان يبقى روتين يطمنك إنه باقي معاك والحقيقة إن



مفيش حاجة باقية، لحد ما تتوفر كل أركان الخدعة، الفخ اللي الكل بيقع فيه بمزاجه وهو مبسوط، لكن الجميل في الموضوع إن نفس الفكرة دي نقدر ندفنها في الأول ونسيطر عليها بدل ما تسيطر هي علينا، لأنها ببساطة بقت مُكررة وملهاش طعم، الحب مُخاطرة كبيرة، مهما تكسب فيها حاجات ممكن تخسر كل حاجة في الآخر، وتعافر علشان تقوم تاني، الحب خدعة كبيرة.

- ليه حضرتك بتقولي الكلام ده دلوقتي؟ وإيه علاقة كل ده بسؤالك عن الكابوس!

- حبيت أنور لك طريقك لو مش عايز تحكيلي حاجة، علشان متتقش في حد، خاصة لو مش من عيلتك، أظن كلامي واضح؟

- يعني أفهم من كلامك إنك محبتش أمي؟

- يا ابني مش بقصد الحب ده.. حب أمك حاجة وحب الناس حاجة تانية، أنا بتكلم على الأصحاب يا نوح، أنا عارف إن الصاحب لما يحب صاحبه بيبقى وفي له قد إيه، أنا بفهمك إن بره حدود البيت ده واللي عايشين فيه القوانين تختلف، متآمنش لحد، إنت عمرك ما هتثق في حد إلا لو بتحبه، وأنا بحذرك من ده، أنا مقدرش أضمن نوايا حد لكن أقدر أحميك، تثق في أهلك.. في عيلتك، عيلتك وبس.



نظرت إليه وبدأت أستوعب مقصده، بالتأكيد علم أبي بصداقتي مع آدم، وكالعادة لا يريدني أن أصادق أحدا خارج نطاق العائلة، هل صحيح ما يقول أبي؟ أهذه الدرجة لا يريدنا أن نُصبح حتى أصدقاء؟ ألا يُمكن أن نُصبح حقًّا أصدقاء نثق في بعضنا البعض؟ يساند بعضنا البعض؟ لكن لماذا؟ هل نحن من نزرع فكرة الحب في أنفسنا ونرويها كما تقول نظرية أبي؟

شردت ثم تذكرت نصيحة أمي ذات يوم عند الحيرة في أمر «استفتِ قلبك»، قالها الرسول كما علمتني وشرحت لي معنى الحديث الشريف،أشعر وكأنني علي القيام بذلك الآن.. الآن يا أبي سوف أستفتي قلبي.



(٥)

«آدم»

في الليلة التالية كان أبي يتحدث مع البواب قائلًا:

- حصل اللي مكنش في الحُسبان، مش عارف أعمل إيه؟ مش هعرف آخد آدم معايا الإمارات، وكمان مش هعرف أسيب أمه هنا، دورها مهم جدًّا في المكتب، ماسكة تفاصيل المشاريع كلها وصعب أسند الشغل لحد تاني، والحمد لله إنها معايا ومساندني ومش معترضة،المشكلة حاليًّا في آدم، هيقعد لوحده ازاي، في كل الأحوال لازم يتعود، آدم كبر وبقى راجل، وأنا في السن ده كنت شايل مسئولية، أعتقد أقدر أسيبه لوحده سنة وأنا مش قلقان، أما عيلة «السعدني» ولا تقدر تهوب ناحيته، هما عارفين كويس رد فعل ولاد «الخولي» هيكون إيه لو لمسوا شعرة من ابني، وبعدين في مصلحة بيننا دلوقتي بس لسه بفكر فيها، عارف يا عم محمد.. لو أعرف من الأول إني هرجع تاني الإمارات كنت سِبت آدم هناك أحسن له يكمل دراسة السنادي كمان، لكن القدر بقى.. هعمل إيه؟



أحزنني ما سمعت جدًا، سأعيش هنا وحدي لعام كامل؟ حدثت نفسي بعد سماعي حديث أبي إلى «عم محمد» الخفير، سيتركني بمفردي في «باسوس»، فقط ظرف مليء بالنقود لمصاريف البيت كاملة، أما دون ذلك فمسئوليتي وحدي.

ناداني أبي بوجه مُقتضب تحسبًا لرد فعلي، وتمت المواجهة، استقبلت ما قاله ببرود ولم أدرِ ماذا أقول، كانت مُواجهته أشبه بإلقاء محاضرة وإعطاء أوامر وتوجيهات كثيرة، «لا تُدخل الغرباء البيت لأنك مطمع، لا تسهر خارج البيت، لا تثق بأحد، لا.. لا.. لا..».. كثير من «لا»، قليل من «افعل»، أما «لا تغضب» و«لا تحزن» و«اهتم بنفسك» أو «هتوحشنا» فليست في قائمة أبي، لكن لا بأس لقد اعتدت على هذا وتأقلمت معه.

في المطار ودعتهما في هدوء ووعدتهما بالالتزام بتعليماتهما الكثيرة التي لم أُصغِ إليها، عُدت إلى فيلا الباسوس بصحبة السائق، وكان الليل قد حل في طريق العودة، لم أفهم حقيقة شعوري، هل أغضب منهما؟ أم أفرح لأنني حُر الآن ولمدة سنة؟ لكن على ذكر الأغراب نسيت أن أخبره عن «نوح»، على أية حال سوف يخبره «عم محمد» في نشرة أخباره، بالتأكيد يعرف عائلته، لكن لا بأس فأنا أرتاح إليه ولا أبالي بتعاليم أبي.

وصلنا إلى الفيلا، وفتح «عم محمد» البوابة الحديدية الرئيسية



ثم اتجهت مباشرة إلى غرفتي وأغلقت الباب، هل رأيت راقصة الباليه في اللوحة التي كانت معلقة بالخارج تبكي؟! أم أنها التهيؤات المريبة كالعادة؟ لابد أنه إحساسي الداخلي الراغب في البكاء من الوحدة القاتلة والكآبة الشديدة التي انتابتني.

بدلت ملابسي وحاولت النوم فلم أستطع، كُنت أفكر فيما حدث ولا أستطيع استيعابه.

كيف يستطيع أب طبيعي وأم طبيعية أن يتركا ابنهما الذي لم يكمل الرابعة عشرة بعدُ بمفرده في هذا العُمر! هل أصبحت رجلًا كما يقول أبي؟ هل يأتمنان الخفير وزوجته إلى هذا الحد ليتركا ابنهما الوحيد معهما؟ما هي خبراتي في الحياة كي أعيش عامًا كاملًا وحيدًا هكذا؟ وما العذر القهري الذي يسبب ذلك؟

جلست شاردًا لا أجد أية إجابات شافية وقد أيقنت أنني في النهاية قد تُركت وحيدًا تفترسني هذه الفيلا الكئيبة.



بعد قليل جاءني صوت خبطات منتظمة متقطعة على باب الغرفة، أفاقتني من شرودي، ليس هناك في البيت إلا «أم محمد» وهذا ليس أسلوبها في الاستئذان، أيمكن أن يكون أحد أفراد عائلة «السعدني»؟ ماذا سيفعلون بي وقد أصبحت وحيدًا، سمعت الكثير عن المجازر بين عائلات «باسوس» كل عدة سنوات، لم أسأل يومًا عن السبب لأنني لن أفهمه، فأنا لم أعش هنا بالقدر الكافي الذي يتيح لي فهم هذه الثقافات والموروثات الغريبة والعتيقة.. جاءت دقات الباب مرة ثانية في إصرار وانتظام، استجمعت قواي وسألت بصوت حاولت أن يبدو خشنًا:

- مين بيخبط؟

جاءني صوت «أم محمد» من وراء الباب:

- أنا «أم محمد»..

تنفست الصعداء عندما سمعت صوتها، لا لم أصبح رجلًا بعد، أم أن الرجال تخاف كما تخاف الصبية والنساء؟ أجبتها وقد رجعت نبرة صوتي الأصلية.

- ادخلي يا «أم محمد»..

دخلت «أم محمد» ورأيت في عينيها شفقة تحاول أن تخفيها فتبسمت:



- لازم تاكل يا «آدم»، الست موصياني عليك، أنا صحيح مش في مقامها لكن باعتبرك زي مروان ربنا يعلم.

- شكرًا يا «أم محمد» أنا كويس متقلقيش وفعلًا مش جعان، بس انتي هتنزلي بدري ليه النهارده؟

- «أبو محمد» رايح مشوار على السريع كده ولازم أقعد بالعيال.

- ومروان راح فين؟

- عيل فلتان.. تلاقيه هنا ولا هنا مع أصحابه.

- طيب روحي انتي ولو احتاجتك أنا هبقى أجيلك.

- عملتلك طبق جاهز بره على السفرة بس تحطه في الميكروويف، وفي أكل في التلاجة لو جُعت تاني، ولو احتجت حاجة بس نادي عليا من البلكونة هجيلك على طول.

أغلقت باب الغرفة وسمعت صوت خطواتها تُغادر، أردت أن أشعل السيجارة المُتبقية لدي لكنني لم أجدها، أيمكن أن تلقي أم محمد بها في القمامة؟ كل شيء جائز.. المهم ألا تُخبر أمي..

بعد دقائق قليلة بدأت رائحة الموت العفنة التي اعتدت على وجودها تظهر في المكان، تعلمت أن أتجاهل هذه الرائحة التي لا حل لها، فقد أصبحت تنتقل معي أينما ذهبت، ثم سمعت صوت الباب الخشبي الكبير يُفتح ويُغلق بهدوء، لقد رحل الجميع إذًا



وأصبحت وحيدًا تمامًا للمرة الأولى في حياتي.

بدلت ملابسي وأغلقت نور الغرفة وحاولت النوم، بالفعل غفوت سريعًا لكنني سمعت صوتًا واضحًا لصرير السلم الخشبي.. وكان واضحًا ومزعجًا، استيقظت في حالة هذيان ما بين النوم والصحيان، وقد تهيأ لي أن والدي ووالدتي بالبيت وأحدهما ينزل أو يصعد على السلم.

بعد لحظات انتبهت إلى أنني في البيت وحيدًا الآن، فاضطربت دقات قلبي فجأة وأنا أنظر إلى باب الغرفة، وتساءلت عمن يمكن أن يكون بالخارج يتحرك بهذه الحرية صعودًا وهبوطًا على السلم، وأخذت الأفكار المرعبة تدور في رأسي. ترى هل سأُقتل مذبوحًا أم سيكون قتلًا رحيمًا سريعًا؟ أم سيخطفونني لتسوية حسابات بين العائلات؟ بات واضحًا أن عائلة «السعدني» لن تتركني وشأني، أتمنى لو يفعل صديقي «حسن» شيئًا من أجلي، أم أن لقبه لن يشفع لي في تلك الأمور؟

بدلت ملابسي سريعًا تحسبًا لأي شيء، ثم فتحت الباب في ترقب ونظرت إلى صالة الاستقبال فوجدتها خالية تمامًا، نظرت إلى السلم وإلى أعلى في ترقب، لكن صوتًا غريبًا أتى من المطبخ وكأن أناسًا كثيرين يتحدثون، أسمع أصواتًا خافتة غير واضحة، ذهبت إلى المطبخ ودخلت إليه في رعب وقدماي ترتجفان..



تجولت في المطبخ ثم الحمام فلم أجد شيئًا، قررت أن أصعد لأعلى ربما كان المتسلل قد قصد غرفة والدي، لكنني تجاهلت الأمر، أو أنني خفت من المجهول الذي لا أعرفه، فدخلت غرفتي مرة أخرى وأغلقت الباب من الداخل جيدًا، بعد لحظات أصدر السلم صوت الصرير الذي أزعجني منذ قليل، هذا دليل على أنني لست وحيدًا وأن أحدهم بالمنزل، بقي السؤال الأهم في ذهني: ماذا أفعل حين يواجهني؟

أحسست للحظة بالجبن، هذا منزلي وهذه ممتلكاتي وقد تركني والدي نائبًا عنه، أخذتني نوبة مفاجئة من الشجاعة وعزمت على إلقاء نظرة على الطابق العلوي، فتحت باب غرفتي في هدوء، ومشيت على أطراف أصابعي حتى لا يُصدر السُلم صريره السخيف، بعد أن صعدت رأيت ستارة البلكونة في التراس تطير في الهواء، واستقبلتني رائحة الموت التي تأقلمت معها، شباك البلكونة الخشبي تُرك مفتوحًا، رُبما للتهوية، فتحت باب الحمام الصغير وكان شاغرًا فأغلقته، وجدت باب غرفة أبي وأمي مفتوحًا أيضًا مما زاد من شكي في أن المتسلل هذا كان يقصد غرفة والدي، كانت الغرفة مظلمة، دخلت وأضأتها.. لا يوجد أحد، لم يتبقَ إلا غرفة الضيوف الشاغرة، اقتربت منها في حذر وفتحتها فجأة وأضأت أنوارها في سرعة فلم أجد أحدًا، وقفت



أفكر للحظات ثم دخلت البلكونة أحاول أن أتنفس بعض الهواء المنعش وقد اقترب منتصف الليل، وهنا لمحت «نوح» يدخل من الباب الحديدي بينما يغلقه الخفير خلفه ويتجه إلى غرفته، تهلل وجهي فرحًا وقد أتى ونس أخيرًا.. ناديته بأعلى صوتي.

- «نوح».. تعالَ.. اطلع.

نظر إلى الأعلى وأجابني بصوت خافت سمعته:

- ما تنزل انت علشان منصحيش حد. أنا قلت أعدي عليك شوية.. هستناك في الجنينة.

- لأ اطلع مفيش حد، أنا نازل أفتح لك باب الفيلا.

- ماشي... بس مش هقعد كتير..

هرعت فرحًا وكأنني أستنجد به، يا ليته يبقى معي الليل كله، فتحت الباب فوجدته واقفًا في ترقب..

- تعالَ يا نوح.. ادخل.

نظر «نوح» إلى الداخل نظرة سريعة..

- متأكد مفيش مشاكل؟ أصل الوقت متأخر برضه.

- يا ابني بقولك مفيش حد.. كلهم سافروا..

دخل نوح يمشي ببطء، أغلقت الباب ثم سبقته وجلسنا في صالة الاستقبال، استرسل «نوح» مُعلقًا:

- يعني الكلام اللي سمعته صح؟ إنت قاعد لوحدك؟



أقلقني كلامه جدًا، الأمور لا تخفى على أحد فعلًا في هذه البلدة:

- يا نهار اسود.. يعني الموضوع انتشر؟

ابتسم «نوح» باستهزاء واسترسل:

- انتشر إيه يا ابني! إنت في «باسوس».. يعني كله يعرف كل حاجة عن كله..

- وبعدين؟

- إنت مالك قلقان كده ليه؟ ولا خايف تقعد لوحدك؟

- خايف إيه بس؟ بقولك إيه.. معاكش سيجارة؟ مش لاقي اللي كنت شايلها.

- لأ مش معايا..

نظرت إليه نظرة طويلة ذات مغزى وأكملت:

- طالما كله عارف كله.. يبقى أكيد تعرف حكايتنا مع عيلة «السعدني»؟

- ومين ميعرفهاش؟

- بصراحة يا «نوح» أنا فعلًا خايف، من شوية اتهيألي إن في حد في البيت وإنه جاي يموتني.

نظر «نوح» إلى السلم الخشبي ثم تفحص صالة الاستقبال سريعًا وتبدلت ملامحه قليلًا، ربما لعناد أو تحدٍّ، لا أعلم تحديدًا، وأردف:



- «آدم».. محدش هيقدر يئذيك خالص متخافش، إنت إنسان طيب ومتهيأليش إنك ممكن تئذي مخلوق، ثم إن عيلة «السعدني» مهما كان في خلافات مش أخلاقهم يتهجموا على حد في سنك، ولو في حاجة تقلق للدرجة دي كان أبوك مستحيل يسيبك لوحدك.

نظرت خجلًا مما فعله أبي، فقد أصبحت علكة يلوكها أهل «باسوس» الآن على ما يبدو.. لكنه لم يبالِ بمشاعري وأكمل حديثه:

- عمومًا يا سيدي وعد مني هعدي عليك كل يوم بعد العشاء، متخافش... ولو في أي حاجة قولي وملكش دعوى، محدش هيقدر يقرب لك.

حاولت أن أبتسم وقلت في قلق أحاول التخلص منه:

- أنا رايح الحمام ثواني وجاي..

أومأ إلي برأسه وذهبت إلى الحمام، بعد أن قضيت حاجتي حاولت فتح الباب لكنه لم يُفتح، حاولت مرارًا وتكرارًا دون جدوى، ثم رأيت الترباس الداخلي يُغلق من تلقاء نفسه! فركت عيني بشدة لعلي أتخيل ما أرى، مددت يدي المُرتعشة كي أفتحه مرة أخرى لكنه انغلق ببطء مرة أخرى دون أن أمسه! رجعت إلى الوراء خطوتين ونزلت بضع قطرات عرق من جبهتي، أخذت



أفكر ماذا أفعل، ناديت على «نوح» بصوت عالٍ مرات عديدة دون جدوى، اقتربت من الباب وفتحت الترباس بسرعة لكن الترباس أُغلق بسرعة أكبر قبل أن أمسك مقبض الباب!

لم أعلم ماذا أفعل حينها لكني أعلم أنني سمعت صوت رجل يضحك ثم رأيت الترباس يُفتح ببطء دون لمسه، ففتحت مقبض الباب بسرعة وهرعت خارجه لأجد «نوح» جالسًا في سكينة، تنفست ما تبقى من أنفاس وقلت لاهثًا والعرق يتصبب من كل جسدي:

– ناديت عليك كتير يا نوح حرام عليك... كل ده مسمعتنيش؟

نظر إلي نوح في دهشة وقام من مكانه ينظر إلي وقال:

– مالك يا ابني.. وإيه كل العرق ده؟ إنت استحميت؟

– الترباس اللي جوه الحمام.. اتهيألي كان بيقفل ويفتح لوحده! وأعتقد سمعت حد بيضحك!

– اللي بيضحك الخفير بره كان بيتكلم مع حد وصوته عالي.

– لأ أنا متأكد إن الصوت كان في الحمام وده مش صوت الخفير، ويعدين أنا كل ده محبوس جوه.. بقالي كتير مش تطمن عليا؟

– بقالك كتير إيه يا ابني.. إنت لسه داخل من دقيقة! اقعد



كده واهدا.. واضح إن أعصابك تعبانة.

قمت من مكاني ذاهبًا إلى الباب الخشبي لأتفقد الخفير وزوجته، فناداني «نوح»:

- رايح فين بس؟

- هبص على الغفير.. علشان كمان أخليه يفتح لك البوابة لما تيجي ماشي.

- حاضر.. بص أنا هقوم أمشي يا آدم..

- اقعد يا عم مش قصدي بس كنت عايز أشوفه صاحي ولا لأ..

- طيب متخرجش دلوقتي على الأقل..

كُنت ممتنًّا بشدة لوجود «نوح» معي ولو قليلًا.. التفتُّ إليه في خوف وسألت:

- ليه؟

نظر إلي بملامح باردة وأردف:

- شكلك خايف وتعبان، ويعدين لو فعلًا في حد بيراقبك ويخوفك أو حتى عايز يئذيك، ميبانش إنك متوتر كده، خليك طبيعي، ثم إن وجودي هنا والنور المفتوح ده هيخلي الناس تفهم إنك مش لوحدك، ساعتها هيفكروا ألف مرة قبل ما يعملوا حاجة.. ده على فرض إن في حد بيحاول يئذيك فعلًا.



مشيت ناحيته مرة أخرى وجلست.. نظرت إليه وأردفت بعد لحظات:

- عندك حق.

ابتسم «نوح» ابتسامة واسعة ثم نهض واقفًا.. فسألته في ذعر:

- رايح فين؟

- هروح.. أبويا شوية وهيقلب الدنيا عليا.

- إنت لسه جاي.. اقعد شوية معايا.

- هنقعد كتير بعدين. أظبَّط أموري بس عشان ما اتحبسش إنت مش عارف صعوبة دخولي وخروجي مع أبويا.

- طيب هتيجي بكره أكيد؟

- أيوه بس انت متخافش.. واشرب حاجة دافية قبل ما تنام، شكلك تعبان.

جاهدت كي أبدو طبيعيًا وأردفت في قلق.

- مش خايف..

أوصلته إلى باب الفيلا لكنه أصر على أن أغلقه وأدخل غرفتي لأستريح، وأردف في حزم أخ كبير:

- «آدم».. أنا هشوف الغفير فين وهخليه يقفل البوابة، متخافش واجمد شوية، روح انت نام، تصبح على خير.



- وانت من أهله.

قلتها في عفوية ثم أغلقت الباب وذهبت إلى غرفتي وأغلقت بابها، استسلمت من شدة الخوف لما قال نوح ونفذته بالحرف، لأول مرة اليوم أشعر ببعض الأمان ولو كان هشًا بعد رحيل أبي، أواجه مصيرًا لا دخل لي به وخوفًا لم أعتده، بعد دقائق سمعت صوت «عم محمد» يتشاجر مع أحدهم، رُبما يتشاجر مع زوجته، ثم صوت البوابة الحديدية تُغلق.

في أول ليلة لي في البيت وحيدًا لم أستطع أن أغلق عيني في الظلام، تركت النور مضاءً، واستسلمت لنوم لم يكن عميقًا لكنه كان مليئًا بأحلام غريبة، أناس لم أرهم من قبل، يبدون كعائلة، يتحدثون بصوت عالٍ أو أنهم كانوا يتشاجرون، لا أعلم.

قبل الفجر بقليل كانت المرة الأولى التي أشعر فيها بتلك اليد الغريبة التي سترافقني طويلًا للأيام القادمة.

في البداية أحسست بيد تربت على كتفي في حدة لتوقظني، استيقظت نصف واعٍ أتلفت حولي دون إدراك، أول ما لفت انتباهي تلك الرائحة النتنة بقوة في الغرفة، لا بد أنه كابوسًا آخر، هكذا قلت لنفسي قبل أن أحاول العودة للنوم. لكن أذني التقطت صوت أدوات مائدة الطعام بالخارج، كأن أحد يأكل بنهم مُستخدمًا الشوكة والسكين وأصوات ارتطامها بالأطباق



تبدو جلية، كما رأيت النور بالخارج يضاء ويغلق من خلال الجزء الزجاجي العلوي بباب الغرفة.

أحسست بقلبي يكاد يتوقف، إنه الطبق الذي تركته «أم محمد»، ثم إنني مُتأكد أنني سمعت البوابة الحديدية تُغلق، ومُستحيل أن يغادر الخفير مكانه في هذه الساعة؛ فليس له مأوى آخر غير بيتنا، وليس من طبيعته السهر إلى هذا الوقت، إذن مَن بالخارج؟ هل أخرج لأستكشف أم أبقى مكاني آمنًا؟ وتذكرت اليد العنيفة التي أيقظتني من نومي في البداية فارتعبت أكثر ورحت أتأكد من إحكام غلق باب الغرفة.

بعد لحظات مرت كدهر، أخذت قرارًا بالبقاء في غرفتي لكنني تقدمت من الباب في بطء حذر على أطراف أصابعي وتأكدت مرة أخرى من إغلاقه جيدًا بالمفتاح، ورجعت إلى سريري بنفس الطريقة كي لا أُحدث صوتًا أستفز به من بالخارج أيًا كان، لن أستطيع أن أستغيث بأي أحد الآن.

دقائق وسمعت صوت أذان الفجر، جاء صوت المؤذن «الله أكبر» خاشعًا فسكت الصوت بالخارج فجأة.

ظللت أفكر فيما حدث وفيما سوف يحدث بعدها، هل كان خوفي طوال اليوم قد جلب أوهامًا؟ إذا كان قد تهيأ لي صوت الشوكة والسكين فمن أيقظني؟ ومن أضاء النور بالخارج؟



لم أجرؤ على الخروج من باب الغرفة رغم شدة احتياجي إلى استخدام الحمام، وبقيت جالسًا أنتظر الفرج.

بعد وقت غير معلوم دق الباب دقات منتظمة مرة أخرى، كتمت أنفاسي وأنا أنظر مذعورًا إليه، ثم دخلت تحت الغطاء والتحفت به، دعوت الله بالنجاة، وكانت هذه المرة الأولى التي أطلب فيها شيئًا منه، فأنا لم أعتدْ ذلك، لم أرَ أبي أو أمي يفعلان أو يحثانني على ذلك، كانت طلباتي كلها مُجابة، لم أسمع أبي يذكر الله أو يذهب إلى صلاة الجمعة كما يفعل أغلب المسلمين، لكنني دعوت الله بالفطرة.

دقات الباب لم تتوقف، دقات منتظمة وكأن من بالخارج يحذرك، توقفت الدقات مرة أخرى وسمعت صوت خطوات تبتعد، أخرجت رأسي من تحت الغطاء في حذر، فرأيت مقبض الباب يتحرك في محاولة لفتحه، من بالخارج يُريدني بلا شك، لماذا تركتني يا أبي أواجه عائلة «السعدني» وحدي؟!

ثم جاءت خطوات سريعة متلاحقة وكأن من بالخارج قد فقد صبره، ثم جاءني صوت عالٍ:

- يا «آدم».. الساعة بقت تسعة هتصحى إمتى؟

كان صوت «أم محمد»، زفرت نفسًا عميقًا ونفضت الغطاء من فوقي في غيظ وحاولت أن أكظم غيظي، أكانت هي من



دخلت في الليل وزوجها ليأكلا؟ فهما الوحيدان اللذان يملكان نسخة من جميع مفاتيح البيت، لكن ما هذه الجرأة التي تجعلهما يمرحان في البيت هكذا دون إذن؟ خاصة بعد سفر والدي؟ أتراهما معتادين على اقتحام المنزل هكذا؟ علا صوتها مرة أخرى:

– دا انت ماكلتش من إمبارح.. مينفعش كده، والله يا حبيبي السنة هتعدي هوا وهتلاقي الأستاذ «إبراهيم» والست والدتك هنا.. دي الأيام بتجري، افتح بس متزعلش.

حاولت أن أتمالك أعصابي وهي تعاملني كطفل أبله، قُمت لأفتح لها الباب ونظرت إليها في غيظ حاولت إخفاءه، دخلت وهي تحمل صينية كبيرة بها فاكهة وحليب وأطباق فطور شهي كثيرة، ثم ابتسمت في بلاهة وكأنها لم تفعل شيئًا واسترسلت:

– صباح الخير.. شايفة الأكل زي ما هو يعني بره، لأ كده الست والدتك تزعل منك.

نظرت إليها مُستفسرًا:

– يعني الأكل بره زى ما هو؟! أُمَّال مين اللي كان بياكل بقى؟

واصلت نظرة البلاهة وأجابت وكأنها تنفي تهمة عن نفسها:

– قصدك إيه؟ مين يعني اللي هياكله بقى؟

– مش قصدي حاجة.. عايز أعرف بس الطبق اللي بره زي



ما هو؟

- اتفضل اخرج شوفه بنفسك.

تذكرت صوت الضحكات ليلة أمس فسألتها:

- صحيح قبل ما أنسى.. هو أبو محمد كان بيضحك إمبارح بالليل بصوت عالي؟

- مش فاكرة.. ليه؟

- أصل صوته كان عالي قوي..

- معرفش أنا كنت نايمة... آه افتكرت في حد من الغفر اللي حوالينا كان بينادي «أبو محمد» بالليل، طلع يكلمه بره لأنه مبيدخلش حد هنا بس مفتكرش ضحك ولا لأ!

قالتها ونظرت إلي في ريبة وبدت منزعجة فأردت أن أغير مجرى تفكيرها فقلت مؤكدًا:

- والنبي إبقي فكريه دايمًا يقفل البوابة بالذات بالليل.

- متخافش بنقفلها والله ده كان واقف قدامها بره مش بعيد، بس عينيا حاضر هقوله.

- أنا شفته فعلًا بيقفل ورا نوح لما جه بس زيادة تأكيد و....

قاطعني صوت ارتطام على الأرض، فنظرت إليها في خوف ثم نظرت إلى الباب المفتوح، التفتت هي نحو الباب وعلا صوتها في عفوية وثقة:



- يا واد يا «مروان».. قلتلك خليك بره يا زفت..

فجأة دخل «مروان» ممسكًا برغيف مليء بالجبن، يأكل في نهم غير مُبالٍ بنا، فأمسكته أمه وشرعت في ضربه فقاطعتها:

- خلاص انتي هتضربيه علشان بياكل؟

ابتسم «مروان» وفمه مملوء بالطعام الذي بدأ في التساقط منه وأردف بشكل مقزز:

- قول لها والنبي.. جيت أقولك صاحبك «حسن» بره عاوزك، بس أنا مرضيتش أدخله إلا لما أقولك الأول زي ما أمي قالتلي:

جاء صوت «أم محمد» مُزعجًا أكثر من ذي قبل:

- أنا مش قلتلك مِيت مرة متدخلش هنا أبدًا؟ وكمان بتاكل من الطبق اللي بره.. أنا حرماك من حاجة يا واد انت؟

نظر لها وهو مبتسم محاولًا أن يغيظها وقضم قضمة كبيرة وتكلم دون مبالاة للفتات الهارب من بين شفتيه إلى الأرض:

- الله.. ما انتي بتعملي الفطار لآدم الأول وإحنا هنموت من الجوع بره، لقيت ده في وشي أكلته.. حقي.

بدا على مروان الانزعاج وربما الغضب فابتسمت له متظاهرًا بعدم سماع جملته الأخيرة وقلت:

- خلي حسن يدخل يا «مروان» على بال ما آخد دش واطلع له.



- حاضر.. هجيبه حالًا.

أدار «مروان» ظهره لأمه وشرع في الخروج لكنها أعطته لسعة قوية على مؤخرة رأسه لم يبالِ بها وخرج، التفتت «أم محمد».. تبسمت وتابعت قائلة:

- لو عوزتو حاجة انده عليا من البلكونة.

ثم أضافت بلهجة غريبة زادتني حيرة:

- وماتخافش كده احنا معاك.. مش هنسيبك.

ثم اختفت من الغرفة سريعًا.

***



(٦)

«حسن»

في هذا اليوم المُريب الذي زُرت فيه منزل آدم صباحًا والذي قررت أن يكون الأخير، أردت أن أسجل مذكراتي لأول مرة على الورق، فما رأيته شيء يستحق التدوين والبحث. كما وددت أن أكتب ما يمكنني أن أرجع إليه مرة أخرى ربما حدث جديد في هذا الموضوع المرعب.

أدخلني «مروان» ابن الخفير المقيم بفيلا «آدم» إلى غرفته حيث كان آدم لا يزال بالحمام، دخلت الغرفة، ولم تكن المرة الأولى بالطبع، أشياء كثيرة مبعثرة كعادة صديقي، صينية كبيرة بها فطور غني لم أستطع مقاومته فجلست أتناول منه ما استطعت حتى شبعت، ثم جذبت الكرسي في ركن الغرفة ووضعته بجانب كرسي المكتب وجهزت البلاي ستيشن استعدادًا للعب عند قدوم «آدم».

فجأة سمعت صوتًا بالخارج لم أتبينه، فظننت أن صديقي قادم من الحمام، لكنه لم يأت، وقفت على عتبة باب الغرفة



ونظرت فوجدت البيت خاليًا، قلت لنفسي: رُبما «أم محمد» بالطابق العلوي تقوم بواجبات التنظيف اليومية، دخلت الغرفة مرة أخرى وشرعت أقضم من التفاحة على الصينية، فسمعت صوت أطفال يضحكون وربما يجرون من خلفي، ثم صوت شيء يقع على الأرض وكأنه كرسي! خرجت في هدوء من الغرفة، واتجهت إلى كراسي مائدة السفرة أستكشف الأمر. فهالني ما رأيت.

رأيت كلبًا أسود ضخمًا يجري هناك ثم اختفى ناحية سلم سفلي يفضي بالتأكيد إلى قبو الفيلا. تعقبته إلى هناك فلم أجد له أثرًا! ووجدت جميع الكراسي في أماكنها، نظرت إلى صالة الاستقبال في حيرة وتوجس، لا بد أن كثرة السهر أتلفت عقلي، دخلت الغرفة وأغلقت الباب كي لا أسمع شيئًا آخر، لكن صرير السلم الخشبي كان قويًا، صوت أقدام تجري عليه صعودًا ونزولًا فتأكدت من وجود «أم محمد»، لعل الكلب الذي رأيته دخل خلسة ولم تره.

جلست أفكر، لو يعلم أبي أن ابنه الصغير «حسن السعدني» سليل عائلة «السعدني» الشهيرة و القديمة في «باسوس» والـ... طالما أظهرت عداءً كبيرًا تجاه عائلة «الخولي»، يصادق ابنهم «آدم» بغير علمه، لغضب غضبًا لا أعلم عواقبه، فهو لا يحبهم بعيدًا



عن التفاق الأسري السائد في السنوات الأخيرة بين العائلتين.

«آدم» صديق الطفولة الذي لم يشأ أبوانا أن نصبح أصدقاء، لكننا استطعنا أن نوهمهم بعكس ذلك لكي تطمئن قلوبهم، كنت أراه في زيارات الخليج وفي زيارات «باسوس»، في لقاء العائلتين السنوي تبدأ المنافسة بأحدث ما اقتنوا من مجوهرات.. سيارات.. أحدث الألعاب لأولادهم كالفيديو جيم والبلاي ستيشن.. أحدث الأجهزة الكهربائية.. وأحيانًا أحدث الأسلحة! تفاخر عائلات لا يخلو من حقد، كراهية مدفونة لا نعلم أساسها، حينما سألت أبي عن سببها لم يجب، بل حذرني من الثقة ومن آدم! لا شيء من هذا كله يهمني، مادام يمتلك «آدم» أحدث بلاي ستيشن مثلي، إذن لا فرق أن نلعب عندي أو عنده.

مع ذلك أعتقد أن الأمور ستتبدل يومًا ما، إنها سُنة الحياة، لا يمكن لشيء أن يستمر أبد الدهر.. لا يُمكن، كل شيء يتغير ويتجدد ثم يرحل، حتى مشاعر الغضب والامتنان التي نشعر بها تجاه بعضنا البعض تتغير وتتبدل وترحل، نحن أيضًا سوف نتغير ونتبدل ونرحل بأي طريقة كانت، لأي سبب مُتوقع أو مفاجئ، هي فقط أسباب لكي نقتنع أن من كان هنا يومًا ما يتنفس ويعيش ويغضب ويفرح لم يعد له وجود الآن، لذلك أحاول أن أفرح كُلما استطعت، وأن أعيش يومي بأكبر قدر ممكن



من الامتستاع فقط.

أثناء شرودي فجأة فُتح الباب في سرعة وقوة فانتفضت، فضحك «آدم» وهو ينظر نحوي، لم أتمالك نفسي من الغيظ وعلا صوتي:

– إيه الخفة اللي انت فيها دي؟!

أكمل «آدم» ضحكته وهو يساوي شعره بالفرشاة وأردف:

– هو انت شفت حاجة؟ ده أنا استويت إمبارح.. بقولك إيه؟

– إيه؟

تحولت نظرة «آدم» إلى شيء من الجدية والخجل وجلس على طرف السرير:

– أنا عاوز أقولك حاجة بس متزعلش، أنا عارف إنك مش هتزعل، إحنا متفقين على كده من زمان، وبعدين كمان إحنا الجيل اللي هيغير كل القرف والقتل اللي عانينا منه و...

قاطعته لمعرفتي أن كل ما يقول مجرد مقدمة لشيء، وأنا أكره المقدمات:

– خلصني يا ابني.. إيه هي الحاجة؟

نظر إلى «آدم» في ريب ثم نظر إلى الباب وقام فأغلقه، ثم جلس بالقرب مني وأخفض صوته قائلًا:



- أنا حاسس إن عيلتكم بتحاول تقتحم البيت من امبارح.. وحاسس كده انهم عاوزين يقتلوني.

نظرت إليه في بلاهة ثم قلبت تعابير وجهي إلى استخفاف ما يقول ولم أعلق، لكنه أكمل وكأنه يصطنع المزاح:

- ما تقول لأبوك «متشولح» ميتشطرش عليا أنا مش قده يا عم..

حاولت السيطرة على أعصابي التي أفقدها عندما يشير آدم إلى هذا الموضوع وأجبته في هدوء:

- يا آدم للمرة المليون بقولك دي إشاعة.. محدش يقدر يأكد إن أصلنا يهودي.. وبجد هزعلك لو سمعت منك الاسم ده تاني..

أراد آدم تغيير مجرى الحديث فتظاهر بأنه لم يسمع ما قلت وأردف:

- إمبارح يا «حسن».. حد كان معايا في الفيلا، يمكن بيخوفوني بس، بس مش قادر أفهم ليه..

ظلت نظرتي البلهاء كما هي وسألته:

- وإيه كمان؟

- المشكلة إن كمان باب الحمام اتربس عليا وانا جوا بالعافية.. وصوت الراجل اللي كان بيضحك! بقول ده مش معقول حد في



عيلتكم.. أنا متلخبط!

لم أتمالك ضحكة أفلتت مني وقلت في استخفاف:

- حمام اتربس.. لأ إنت كده القعدة لوحدك خطر عليك.
خرفت ولا إيه؟

- أنا عارف إنك مش هتصدقني، بس بجد كان في حد
معايا، ده كمان في حد صحاني!

- صحاك إزاي يعني؟

- في إيد صحتني بالليل، كنت هموت وأنام وأول ما عيني
تغفل وأبدأ أروح في النوم تقعد تزقني من على السرير لحد ما
أصحى.

- وبعدين؟

- بعدين إيه؟ باتنفض وأفضل صاحي.

- وشفت اللي بيصحيك؟

- لأ.. صحيت ملقيتش حد!

- ولا هتشوفه.. إنت عبيط يالا؟ ده أكيد حلم.

- أنا عارف إنك مش هتفهمني، بس لو مت أو اتخطفت
ذنبي في رقبتكم يا «حسن»، وإنت صاحبي وتجيلي حقي.

نظرت إليه وقد أضفت ابتسامة استهزاء وأكملت:

- مش هسك فيك.. موت إنت بس وشوف أنا هعمل إيه..



بقولك إيه يا ابني إنت، أنا جاي ساعتين وماشي من ورا أهلي، هنظبط الزفت نلعب ولا أقوم أروح ألعب في بيتي بكرامتي؟!

كانت نظرة «آدم» تميل إلى الإحباط فأجابني بغير حماس:

- ماشي تعالَ نلعب..

جلسنا في مقابل المكتب بجانب بعضنا وبدأنا في اللعب، هنا تذكرت الأصوات التي سمعتها وأردت أن أتأكد من وجود أحد بالفيلا فسألته..

- بقولك إيه.. ما تخلي «أم محمد» تعمل لنا شاي..

- «أم محمد» مشيت من بدري وعلشان أنده عليها حوار.. شوية ونقوم إحنا نعمل.

قالها «آدم» في تلقائية دون أن يلتفت، استقبلت إجابته وقد اضطرب صدري بما حدث، إذا لم تكن زوجة الخفير من أحدثت الأصوات.. إذن فمن هو؟ أترى حديث «آدم» عن الليلة الماضية صحيحًا؟ أترى كل تلك الأحاديث الخرافية التي كانت محور حديث أمي وصديقاتها عن فيلا الخولي حقيقية؟ أم أن لأبي أو أحد أفراد عائلتنا علاقة بالأمر؟ لكن ما ذنب «آدم» بكل ما حدث بين العائلتين؟ إذا صح كلامه فسوف أتبرأ منهم جميعًا، لكنني لم أقوَ على إخباره بتلك الأصوات لأنه بهذا سيصح حديثه عن عائلتي.



بدأنا نُركز في اللعب ونسينا كل شيء، حقًّا أستمتع باللعب مع «آدم»، يفهم كلانا الآخر دون حديث، أحيانًا دون أن ننظر إلى بعض، مع مرور الوقت تناولنا كل الفطور الشهي معًا، ثم قام «آدم» إلى المطبخ وأحضر زجاجتي ماء فقد كان الجو حارًّا، أو رُبما تأثير اللعب علينا، نظرت إلى الباب فوجدته مواريًا، لم يُغلقه «آدم»، عُدنا إلى اللعب مرة ثانية لكن لا أعلم لماذا لم أكن مطمئنًا لموارية الباب، أردت بضع مرات أن أقوم فأغلقه لكن اللعب كان أشد لهوًا ولذة، فتكاسلت.

كان «آدم» هو الغالب فأخذ يضحك ويقهقه ويزيد في إغاظتي، لكنني لأول مرة لم أبالِ، جزء مني كان يفكر في تلك الأصوات التي سمعتها، ارتطام الكرسي وصرير السلم والأقدام.

وبعد أن نسيت ما حدث وأخذني ما أخذ «آدم» من اللهو، تهيأ لي وكأنني أرى بطرف عيني شخصًا ما عند باب الغرفة، لم أنظر في البداية لأن المباراة كانت على أشدها، لكني أحسست أن هناك شخصًا ما واقفًا يراقبنا، مما أجبرني على الالتفات لرؤيته على عدة مراحل وكأن شيئًا ما يزيح وجهي ناحية الباب، وكانت مفاجأة لم أتوقعها قط.

عندما رأيت هذا الكائن واقفًا خلف الباب ممسكًا بيديه



الاثنتين الباب ويُطل علينا برأسه فقط، في حين أخفى باقي جسده وراء الباب، أدرت وجهي مرة أخرى إلى البلاي ستيشن بطريقة عفوية، لكنني وبسرعة أرجعت رأسي إلى الباب لأرى هذا الكائن مرة أخرى، لم يكن شخصًا، كان كيانًا أسودَ سوادًا فاحمًا، طويلًا يقارب طول الباب، عيناه حمراوان، والعجيب أني أحسست أنه لم يكن ينظر إلينا مباشرة، بل ينظر إلى الشاشة!

لحظات واختفى هذا الكيان، تبخر وكأنه لم يكن موجودًا وتركني مبللًا بالعرق وقد فغرت فمي في هلع، توقفت عن اللعب وأحسست أن أصابعي قد وُضعت في ثلج، لحظات خارج الدهر، لحظات لا أستطيع أن أصفها أحسست فيها أنني ضعيف جدًّا، لسنا وحدنا في هذا الكون كما نعلم لكن رؤيتنا لمن يشاركوننا فيه تجعلك تشعر بالضآلة.

تنبهت إلى آدم والتفت إليه فوجدته ينظر هو الآخر لنفس المكان الذي كان فيه ذلك الكائن منذ ثانيتين، وقد أصابه ما أصابني من رعب، بل أعتقد أنه كان أضعافًا مُضاعفة، بعد لحظات مرت علينا وكأنها ساعات تمالكتُ نسبة صغيرة من شجاعتي التي طالما تفاخرت بها على صغر سني وسألت صديقي وأنا أبتلع ما تبقى في حلقي:

- بتبص على إيه؟



أدار «آدم» وجهه إلي في بطء وهلع وقد احمر وجهه وأذناه ولاحظت ارتجافًا يديه وقال:

- إنت كنت بتبص على إيه؟

- قول إنت..

- لأ قول إنت الأول..

جف حلقي تمامًا وارتعش صوتي:

- اللى انت شفته..

- عينه حمرا صح؟

- وإسود خالص..

مرت لحظات أخرى بغير كلام.. لم نستطع أن نغلق الباب أو نتحرك من أماكننا أو حتى أن نُكمل حديثنا.

فجأة فُتح الباب الخشبي من الخارج وسمعنا صوت «مروان» مهللًا:

- يا «آدم» يا «آدم»، إنت مش وعدتني تلاعبني معاك مرة.. أنا عاوز ألعب والنبي، دور واحد بس.

حمدت الله حمدًا كثيرًا على مجيئه، وقُمت على عجل وكنت في حالة يُرثى لها، قلت في صوت خافت لا أعتقد أن صديقي سمعه:

- معلش أنا لازم أمشي علشان اتأخرت..



لم يعلق صديقي بكلمة، لم يكن لديه ما يقوله وقد صار الأمر واضحا، خرجت أجري وقد رآني «مروان» وكان ممسكًا بالباب الخشبي ففتحته بعنف على آخره، فتابعني في تعجب.

الآن فهمت من أين سمعت الأصوات وكل ما حدث البارحة لصديقي المسكين، يا ليتها كانت عائلتي من تتربص به، فتكون أرحم من هذا الذي أظنه، يا ليتها كانت عائلتي.. ترى ما الذي سيفعله هذا المسكين وحده معهم في هذه الفيلا الملعونة؟!

***



(٧)

«آدم»

سمعت صوت فرقعة كبيرة بصالة الاستقبال بينما كُنت مُستغرقًا في مشاهدة القناة الثانية في غرفتي، صوت تحطيم زجاج هائل، على ما يبدو أن الصوت قد أتى من الخارج، هرعت لأرى ماذا حدث، لم أجد شيئًا كالعادة، حينها رن جرس الفيلا، فذهبت ونظرت عبر العين السحرية، رأيت نوح يقف منتظرًا، فتحت الباب ودعوته للدخول، دخل في هدوء كعادته ينظر نظرة سريعة إلى البيت، لا يعلم أنني أرغب بشدة في وجوده وكنت أنتظره منذ رحل حسن في صمت بعد ما شاهدناه، نظرت لنوح محاولًا الابتسام رغم توتري الواضح وقلت:

- اقعد.. إيه الأخبار؟

نظر إلي مُتوجسًا وسألني:

- أنا تمام... إنت كويس؟

- وانت جاي سمعت صوت فرقعة... زى إزاز بيتكسر؟

- فرقعة؟ لأ الدنيا هادية بره.



- طيب شفت عم محمد بره؟

- شفت مراته.

- عم محمد ده كمان غريب! مش مركز مع الحراسة من يوم ما أبويا سافر. مش مطمن له..

- ليه يعني؟

- بقى بيعمل مشاوير كتير الأيام دي ويسيب الفيلا لمراته.. ومراته بتجري ورا العيال طول اليوم. وكل شوية ألاقيها في حتة شكل في البيت مع إنها مكانتش بتدخله تقريبًا اليومين اللي كان أبويا وأمي هنا.

- يا ابني متكبرش الموضوع،عم محمد برضه لسه مش متعود إن في حد عايش في الفيلا على طول، خد بالك هو متعود على الفيلا فاضية، شوية وهيتعود على وجودك، تلاقيه بيجيب حاجة وراجع، ولا يا سيدي حتى بيعمل مصلحة.. إيه المشكلة؟ الدنيا هنا أمان برضه إحنا مش في شيكاغو.

سادت لحظات صمت ثم قلت في عفوية:

- أحيانًا بتبقى باسوس قريبة من شيكاغو، أنا سمعت عن...

قاطعني نوح في برود:

- عن الخناقات اللي بيقتلوا فيها بعض؟ دي بتحصل كل



فترة طويلة، وبعدين مهما حصل مش هيتشطروا على عيل يعني.

صدمتني صراحته لدقائق، وتوقف نظري عليه دون حديث ربما لأنه يراني «عيل»، لكن غلبني الضحك فضحكت وضحك معي لثوانٍ، ثم أردف:

- مش قصدي عيل بالمعنى، لكن في الآخر أذيتك مش هتفيد حد، ده لو في عداوة بين أبوك وبين أي عيلة يعني.

- فاهم.

بالرغم من أن شخصية «نوح» تبدو سوية واجتماعية، إلا أنني أشعر وكأنه يخبئ سرًّا بداخله، قررت أن أفتح موضوعات مختلفة ربما أعرفه أكثر، لكنه باغتني بسؤال مُختلف:

- فين بقى «البلاي ستيشن» علشان أغلبك؟

بدأت في تجهيز «البلاي ستيشن» والكراسي في غرفتي، ما إن انتهيت حتى جلس «نوح» في سرعة وفرح كأنه طفل صغير، ثم شرع في اللعب بمفرده فأردفت:

- عارف يا نوح.. مش عارف ليه ساعات بحس إن جواك حاجة غريبة مش قادر أفهمها، لو عندك ظروف وعايز تفضفض قول، إحنا بقينا أصحاب.

نظر «نوح» إلي نظرة خاطفة بطرف عينه ولم يُجب عن سؤالي، وكُنت أريده أن يتحدث أكثر لعل قلبه يهدأ فأردفت بنبرة ماكرة



لعلها تلفت انتباهه:

- أقولك الصراحة...؟

كما توقعت لفتت انتباهه هذه الجملة التشويقية التي في حقيقتها سؤال يثير الفضول، تلفت لثوانٍ وعلق في سرعة وقد شغله اللعب:

- قول..

- مع إني معرفكش كويس لكن بدأت أرتاح لك.

أجاب سؤالي وهو لا يزال مُنشغلًا باللعب بمفرده:

- إنت ارتحت من أول معرفتنا يا «آدم» وإلا مكانش زمانا دلوقتي بنلعب سوا عندك.

- عندك حق.

توقف «نوح» عن اللعب والتفت إلي وقال في نبرة غريبة:

- بص يا «آدم».. كل واحد منا له حكايته، متحاولش تعرف كل الحكاية علشان كل واحد فينا بيحكي الجزء اللي عايز التاني يعرفه وبس.. فاهمني؟

نظرت إليه وابتسمت فرد الابتسامة وقد فهم كلانا الآخر إلى حد كبير في لحظات، أكمل حديثه وكأنه يتأمل شيئًا لا أراه:

- أمي دايمًا تكلمني عن «الحب غير المشروط»، اللي هو مفيهوش مصالح، تفتكر ده ممكن يبقى بين الصحاب؟



- مش عارف..

- إنت مثلًا ممكن تفكر إن أهلك مش بيحبوك.. لأنهم سابوك لوحدك هنا، قرايبك مش حواليك، اللي بياخد باله منك الغفير ومراته.. متزعلش مني يعني..

نظرت إليه وقد اختلطت مشاعر الغضب والغيرة والحزن معًا وقد فاجأتني جرأته، ولم أدرِ ماذا أقول.. لكنه أردف سريعًا:

- أنا عارف إنك مش متزعل مني لأنك فاهم أنا أقصد إيه، وعارف إن سنك صغير لكن دماغك كبيرة، اللي عايز أقوله إن دايمًا التوقعات أكتر حاجة بتفسد كل أنواع العلاقات، تقبل اللي قدامك زي ما هو ومتتوقعش حاجة من أهلك، من أي حد مهما كان قريب منك، مهما كنت كويس معاه، لأنه لو خلف توقعاتك هتتصدم وممكن تكرهه، ولو كرهت قلبك هيتغير.

ساد الصمت بينما هو منشغل باللعب وعقلي يريد أن يستوعب ما قال، فسألته:

- تقصد إيه؟

- أقصد متلومش أبوك وأمك من جواك وعيش حياتك، أنا بشوفك بتتحول إزاي لما بتيجي سيرتهم، هما طاقتهم كده، حدودهم كده، مش معناه إنهم مش بيحبوك، هما أكيد بيحبوك بس بطريقتهم وعلى قد طاقتهم وإمكانيتهم، هي دي إمكانيتهم



ولو كانت محدودة، ثم إن في قاعدة غريبة..

- إيه هي؟

- أي حاجة وهي بعيدة حلوة وقيمتها فيها، أول ما تبقى ملكك بتفقد قيمتها، خلاص بقت موجودة، مهما كانت غالية ومتتعوضش، مش هترجع قيمتها تاني غير لو ضاعت منك، التعود بيعمل كده، التعود بيخلي الناس تنسى التقدير.

- أنا مش حاجة يا نوح أنا بني آدم..

- أهلك ضامنين وجودك وطاعتك، هتعمل إيه يعني؟ هتطفش؟ مش معنى كده بقولك سيبهم، بس بحاول أفهمك نفسية الناس من جوا.

- إنت مش بتحلل تصرف أهلي يا نوح علشان أنا باين عليا إني متضايق منهم، إنت بتقول كل ده علشان تهرب من الإجابة لما قلتلك فضفض لو عندك مشكلة.

- أنا أكيد عندي مشاكل في حياتي، لكن قبل ما أفضفض حبيت أحل لك مشكلتك إنت الأول مع أهلك، حبيت أقولك إني حاسس بيك وإن عادي كلنا عندنا مشاكل مش إنت لوحدك.

لحظات وهبت رائحة العفن التي اعتاد أنفي عليها، توقف نوح عن اللعب للحظات وبدأ ينظر تارة إلى الحوائط وتارة إلى السقف في توجس، وبدأت ملامحه تختلف فسألته:



- مالك؟

- مفيش.. كمل كنت هتقول حاجة؟

قالها نوح وقد لمحت في عينيه نظرة خوف سريعة يريد أن يخفيها، فسألته:

- بقولك إيه، موضوع الخناقة القديمة بتاعة عيلة السعدني ده، عارفها؟

- بسمع كلام كده.

- الموضوع ده ساعات بفكر فيه كتير، تفتكر لسه شغال؟

- سمعت مرة بابا بيقول خناقات الناس مبتخلصش.

- أنا نفسي أعرف السبب إيه؟

- أنا هعرفك..

قالها «نوح» وتوقف فجأة كأنه تذكر شيئًا، لكنني أردت أن أعرف السبب في شغف فسألته:

- إيه السبب؟

زاغت نظرات «نوح» في قلق في كل الاتجاهات، وفجأة نظر إلى الكرسي في رُكن الغُرفة في رُعب، أطال النظر إليه وكأنه يرى ما لا أرى ثم ارتعشت يداه وسكت، نظرت إلى رُكن الغرفة الشاغر في ذهول ونظرت إليه وأردفت في قلق:

- مالك يا «نوح»؟



نظر «نوح» إلى اللعبة مرة أخرى ولم ينظر بعدها في عيني مُباشرة وقال بصوت مُرتعش بسرعة:

- الجيم خلص.. نكمل بعدين، أنا لازم أروح.. تصبح على خير.

- جيم إيه اللي خلص! أنا لسه ملعبتش.

- أنا لازم أمشي حالًا معلش.

نظرت إليه في قلق وهو يُسرع إلى باب الغرفة يفتحه ويهرول إلى الخارج وأنا مذهول، فأردفت في شك وخوف أقاومه:

- ماشي يا عم البطل.. وانت من أهل الخير.

جاء رده سريعًا وعفويًّا:

- معلش يا آدم هتتعوض، يالّلا سلام وخلي بالك إنت على نفسك.

لم أعلق، ثم نظرت إلى ركن الغُرفة الخالي إلا من كُرسي وحيد، وتذكرت يوم أن رحل حسن بنفس طريقته، كان خائفًا بالتأكيد، مشيت بسرعة وراءه إلى أن فتح باب الفيلا وأغلقه وراءه، ذهبت إلى غرفتي وأنا مُنشغل بما فعله نوح.

دخلت الغرفة وجلست في شرود، دقائق وقاطعني صرير البوابة الحديدية يُغلق، ثم دخلت الحمام لأستحم قبل النوم كعادتي، وقد بدأت أعتاد الوحدة، بعد أن انتهيت وأثناء طريقي



لغرفتي مرة أخرى خيل إلي أنني سمعت صوت طفل يبكي! أطرقت السمع لأتأكد من مصدر صوت البكاء، فوجئت أن البكاء بلا شك داخل غرفتي! في بادئ الأمر لم أميز الصوت، توقفت مكاني مذعورًا ممسكًا بالمنشفة، لم أعلم ماذا أفعل من شدة الخوف! ثم تهيأ لي أنه صوت نوح! أمسكت بطرفي المنشفة وكانت مُلتفة حول عُنقي لأمسح بها وجهي ورأسي، ثوانٍ وعلا صوت البكاء، فوجدته صوت طفل! تجمدت أطرافي وحاولت جاهدًا أن أركز.. أهي نبرة صوت نوح أم لا؟!

هل أتى مرة أخرى؟ لكن كيف دخل؟ ألم يُغلق الباب وراءه؟ أم أنه صوت طفل؟ لكن من هو؟ وكيف دخل؟ ولماذا يبكي؟ ظللت واقفًا مكاني مُمسكًا بطرفي المنشفة لا أدري ماذا أفعل؟ لم تقوَ قدماي على دخول الغرفة أو الرجوع إلى الحمام مرة أخرى، هل أختبئ؟ ليس منطقيًا أن أختبئ في بيتي، لا بد أن أرى ماذا يفعل نوح أو أي شخص آخر في بيتي الآن وكيف دخل؟ تشجعت وأجبرت قدميَّ على الدخول وعيناي متسمرتان على ما أظن، كان الصوت واضحًا وعاليًا، تسللت إلى الغرفة فانقطع الصوت فجأة وبدا لي أنه آتٍ من الدور العلوي! لكنه وبلا شك صوت طفل!

أحسست كأنني دخلت لعبة فجأة رغمًا عني، لعبة على



الأرجح لست مؤهلًا لها الآن، فكرت للحظات في اتباع الصوت لكنني تراجعت، كنت أصغر من أن أفعل هذا، نظرت إلى الغرفة نظرة سريعة فاحصة شاملة وأغلقت بابها بالمفتاح، كان الصوت لا يزال يأتي من الدور العلوي، فقررت أن أتجاهله حتى وإن حدث أمر عظيم، أكملت ارتداء ملابسي والتحفت بالغطاء في صحبة نور الغرفة الذي لم أستطع إغلاقه كالليلة السابقة، كما لم يجد النوم لجفوني سبيلًا في هذه الليلة.

***



(٨)

«حسن»

هذا الكائن شديد السواد أحمر العينين طويل القامة، لم أستطع أن أنساه أو أنسى تلك الأصوات خارج غرفة آدم أيضًا، من هول الصدمة والمفاجأة لم أستطع أن أتبين ملامحه، لكنه وبكل تأكيد لم يكن يهتم بأمرنا، كانت عيناه مسلطتين نحو جهاز «البلاي ستيشن»، ما هو جنس هذا الكائن؟ هل يُعقل أن يكون على كوكبنا كائنات فضائية كما في الأفلام؟ أم أنه من الجن؟ وماذا كان يريد من طفلين بالكاد بلغا للتو؟ لكن هل أستطيع أن أجزم أنه جن من الأساس؟ وإن لم يكن فمن هو؟

أسئلة كثيرة لم أملك شجاعة البحث عن إجابتها، لكني لم أستطع مُقاومة فضولي فبحثت بعدها في كتاب قديم ملك لأبي لاهتمامه القديم بعالم الماورائيات والأرواح، قرأت القليل الذي جعلني أقرر عدم القراءة مرة أخرى، ومنذ ذلك الحين وفي كل مرة أغلق فيها عيني لتستريحا أراه في عقلي واضحًا لكن بملامح تشبهنا، ملامح شبه واضحة تؤرق نومي، وكأنني أجذبه بكثرة



التفكير فيه، ثم أنام رغمًا عني مُرهقًا، ولا أستطيع التحدث بشأن ما حدث مرة أخرى حتى مع آدم! أحيانًا أتساءل: هل كُنت أهذي؟ أم أنني حقًّا رأيت ما رأيت؟

جلست في هذا الصباح الباكر في غرفتي وقد احتار عقلي في كثير من الأسئلة ولم يُجبني، أصبحت أصلي جميع الصلوات دون انتظار أمي أن تطلب ذلك مني كما اعتادت أن تفعل، أصلي لله كي يحميني وأنا الخائف مما لا أعرف، أصبحت أنام بعد صلاة العشاء وأصحو باكرًا، سمعت كثيرًا من القصص المُرعبة من الكبار قبل ذلك، لكنني لم أسمع أن أحدًا رآهم، على العموم لم أر شيئًا بعدها أو أشعر بشيء مُريب، لا بد أنه بيت آدم.

لقد تناسيت التاريخ الملعون لهذا البيت وما كان يجب أن أتناساه، كُنت صغيرًا مع عائلتي في زيارة لعائلتهم، وكانت أمي لا تدخل فيلتهم إلا بعد قراءة آية «الكرسي» مرات عديدة وهي تمسح بيديها على رأسي، وترتدي نفس الآية في سلسلة حول رقبتها لا تخلعها أبدًا، كُنت ألعب مع آدم كرة القدم في حديقتهم التي تشبه الغابة، وبعد أن فرغنا ومللنا حل الليل، ورأينا القمر مُكتملًا كأنه وجه يضحك لنا فأردنا تمضية بعض الوقت في اللعب ولم نُرد أن ندخل البيت.

ذهبنا إلى شجرة عتيقة وأخذنا نصوب الكرة ناحيتها،



أصوبها أنا مرة فترتد إلينا ليصوبها آدم وهكذا مرات ومرات. واستمر اللعب ما يقرب من ساعة إلى أن صوبها آدم في المرة الأخيرة أمام عيني فلم ترتد مرة أخرى!

ماذا حدث؟ أين اختفت الكرة؟ أين ذهبت؟ ومن الذي أخذها؟ نظرنا إلى بعض في ذهول لاختفائها أمام أعيننا، في بادئ الأمر نظرنا حولنا، ذهبنا وراء الشجرة وأخذنا نبحث عن الكرة في كل مكان فلم نجدها، مر وقت لا أذكره في البحث عنها دون فائدة، وفجأة ظهرت الكرة أمام أعيننا قادمة من اللاشيء. في اتجاه مقابل لمكاننا. ظهرت من العدم وكأن أحدًا رماها من بُعد آخر لا نراه!

بالطبع انتشر موضوع اختفاء الكرة في «باسوس» بين الأطفال في أعمارنا، وبين الكبار أيضًا، فكانوا يرتابون من فكرة دخول البيت أو الاقتراب منه ليلًا، حينها لم أفعل لأنني كُنت في سن من السهل أن ينسى سريعًا، لكنني الآن تذكرت كلام أبي في طفولتي عن هذه الفيلا، وكيف أنها كانت مسكونة وبها لعنة قديمة وما إلى ذلك من قصص عاشها مع والد آدم لا أتذكرها جميعًا، كان دائمًا يقول لأمي إن هذه الفيلا مُميزة عن مثيلاتها في باسوس.

بعد قليل سمعت جرس الباب يرن، دقائق وجاء صوت



أمي عاليًا: «يا حسن.. آدم الخولي هنا».

انتفضت ولم أعلم حقيقة شعوري.. كأنني أصبحت أخاف منه، للدقة من أي شيء تابع لهذا البيت، قُمت من مكاني وحاولت جاهدًا أن أبدو طبيعيًا مع صديقي، فليس له ذنب في كل ما يحدث، كان مثلي تمامًا خائفًا مذعورًا، أوصلته أمي إلى الغرفة وكان لنظراتها مغزى أفهمه، دخل آدم الغرفة وجلس على سريري لكنه لم يبدُ كعادته، لم أشأ أن أتحدث عن هذا الكائن مرة أخرى.

لم ينظر إلي آدم ولم يتحدث لثوانٍ، كان جالسًا مطأطئ الرأس على غير عادته، بدا لي كأنه يحمل خبرًا سيئًا، ولم أرد أن أعرفه فأردفت وأنا أتحرك في الغرفة وأتظاهر بترتيبها:

- تشرب شاي؟

- لأ شكرًا.

- إنت خاسس قوي.. تفطر معايا؟ أنا لسه هفطر.

- لا ملیش نفس.

- طيب.. تحب نلعب؟

عندها اعتدل في جلسته ونظر إلي في جدية وقال:

- حسن.. أنا مش عارف أعيش لوحدي في البيت ده.

أدركت أن أحداثًا جديدة قد مر بها صديقي، لم يبال بعدم



ردي واسترسل في حديثه:

- إمبارح حصل حاجة غريبة جدًا.. كان نوح صاحبي عندي.. ويا دوب لسه ماشي وبعد ما مشي سمعته بيعيط في أوضتي! وبعدين اتأكدت إن مش هو اللي بيعيط.. ده طفل!

- مش فاهم يعني إيه بعد ما مشي لقيته بيعيط! وبعدين بقى طفل؟ ومين نوح ده أصلًا؟

- سمعت صوت عياط في أوضتي لكن لما دخلتها ملقتش حدا! ونوح ده واحد اتعرفت عليه هبقى أحكيلك بعدين... مش ده الموضوع يا حسن.. أنا متلخبط...

تحدث آدم بعصبية فلم أشأ أن أزيدها فأردفت:

- ماشي.. وبعدين؟

- وبعدين إيه؟

- وبعدين حصل إيه؟

- الصوت اتنقل.

- اتنقل إزاي؟ شفت حد؟

- لأ.. سمعت صوت الطفل بقى جاي من فوق!

على الفور انتقلت إلى ذهني صورة الكائن الذي رأيناه معًا، نظرت إليه في توجس وسألته:

- وعملت إيه من ساعتها لحد دلوقتي؟



- منمتش من ساعتها لحد ما جيتلك على طول.

- مسألتش الغفير ولا مراته؟

- لأ مجاش في بالي.

- إزاي يا ابني! أول حاجة كان لازم تعملها تسألهم.

- أسألهم أقول إيه يعني؟ وأنا ملقتش حد! ثم أنا ما صدقت النور طلع علشان أعرف أخرج من البيت أصلًا.

نظرت إليه بتمعن ووجدت حالته مُزرية، لم أشأ أن أؤذيه بلوم أو عتاب، وكيف أفعل وأنا أراه ضحية؟ لكنني تذكرت اسم «نوح»، هذا الاسم لم أسمع به من قبل بين أصدقائنا فسألته.

- آدم.. إنت واثق من نوح ده؟ يكون حد مسلطه يرميلك حاجة في البيت؟

- حاجة زي إيه؟

- سحر مثلًا؟ لو حد عايز يئذيكم.

- لا لا ما أعتقدش.. ده واد جدع.

قالها آدم بعفوية لكنه توقف وبدأ يفكر ثم عاد بيقين ليقول:

- معتقدش نوح يئذيني.. عمر ما إحساسي بيطلع غلط.

- حساس قوي.. عمومًا... أنا أكتر واحد موقفي صعب دلوقتي يا آدم.

- ليه بتقول كده؟



- علشان إنت رغم إنك عندي وفي بيتي، برضه هتفكر إننا هنتذيك.

ظهر الغضب على وجه آدم وعلق بنبرة لا تخلو من عصبية:

- يا حسن انت صاحبي، واتفقنا كتير نطلع نفسنا بره الحسابات دي.

لم أعلق لكنني تمنيت لو أستطيع أن أتأكد من عدم علاقة عائلتي بأذى صديقي، استمرت نظرات آدم في متابعتي وقد بدا عليه الإرهاق الشديد وهو يقول:

- متفق مع كلامي ولا إيه؟

حاولت أن أبتسم قدر استطاعتي فهززت رأسي وقلت:

- متقلقش من الموضوع ده.

قلتها وأنا أتمنى أن أستطيع المحافظة عليها، حقًّا أتمنى ألا أخسرك يا صديقي، لكنه باغتني بسؤال:

- هو إنت ليه مش بتتكلم عن اللي حصل خالص وقت ما كنا بنلعب يا حسن؟ ده انت مكلمتنيش من ساعتها! خايف تفتح الموضوع؟

نظرت إليه في قلق ولم أجبه فأكمل:

- إنت خايف طبعًا.. أنا كمان خايف ومش عارف أعمل إيه؟

- بيقولوا إن الحاجات دي بتيجي على الكلام.



لم تتوقف نظرات آدم عن لومي ولم يتوقف جبيني عن إفراز العرق الغزير، ولم أجرؤ أن أنظر في عينيه مباشرة، أنا الصديق الخائف المُتخاذل عن مساعدة صديقه، ثم جاءتني فكرة فقلت في حماس:

– ما تلم هدومك وتيجي تقعد معايا هنا؟ وتسيب البيت باللي فيه لحد ما تبلغ أهلك وهما يتصرفوا في الموضوع ده.

– مش حل، ثم إن بابا أكيد مش هيوافق وأهلك كمان هيستغربوا، دي مامتك كانت مستغربة لما شافتني جاي دلوقتي. وبعدين أقول لأهلي إيه؟ في صوت عيل بيعيط في الفيلا فهروح أقعد عند ولاد السعدني؟

– معلش يا آدم، متنساش إنهم فاكرين إن صحوبيتنا على قد الزيارات بتاعتهم بس.

– فاهم.. طيب أنا كده هاضطر أمشي بقى.

– ما تقعد يا ابني شوية.

– ويعد ما أقعد؟ ما هو في الآخر لازم أروح يا حسن.

– طيب لو في حاجة كلمني على طول.

نظر نحوي بخيبة لمحتها وتجاهلتها وقال:

– إن شاء الله.. سلام.

***



(٩)

«آدم»

أيقنت بعد خروجي من منزل حسن أنه خائف ربما أكثر مني ولا فائدة منه، أقدر خوفه وأجاهد عقلي كي يتحكم في مشاعري التي تلومه، من منا لا يخاف المجهول؟ من منا لا يخاف ما لا يراه؟ نحن لا نعلم حقًّا نواياهم، ثم إن عالمهم وقوانينهم تختلف عن عالمنا وعن قوانيننا تمامًا، هذه معلوماتي العامة.

تمشيت عائدًا إلى الفيلا، كانت فترة الظهيرة شديدة الحرارة والرطوبة أيضًا، أردت بشدة أن أستحم لأزيل كل هذا العرق، وأن أتناول فطوري ثم أخلد للنوم في هواء المكيف البارد، كان عقلي في حالة هذيان نتيجة قلة النوم. أو انعدامه تقريبًا.. كذلك القلق، لكنني سأقاوم كل هذا لأفعل ما أريد.

رأيت باب الفيلا الحديدي مُواربًا من بعيد، اقتربت فرأيت «عم محمد» يتحدث إلى شخص لا أعرفه، فلم أبالِ حتى إنني من شدة التعب لم أسأله عن أي شيء، كان النوم مُسيطرًا على عقلي سيطرة كاملة، وبدأت أعصابي في الانهيار، نظرت إليه



وطلبت منه بصوت ضعيف إفطارًا تحضره «أم محمد»، تركته وهو يسألني: «كنت فين يا آدم؟ وإيه اللي خرجك بدري كده؟» لكنني لم أجبه ومشيت نحو الباب إلى أن فتحته ووقفت أنظر إلى الفيلا من الداخل وأتمنى ألا يحدث شيء مُريب.

انتابتني مشاعر غريبة، امتلأت إصرارًا على إكمال خطتي التي لم أظن يومًا أن تكونِ خطة ليومي، وهي أن أستحم ثم أتناول الفطور وأخلد إلى نوم عميق، دخلت وأغلقت الباب وتصرفت كأن شيئًا لم يكن بالأمس، إنني فقط مُراهق لم ينضج بعد، يتوهم أصواتًا ويخاف منها ثم يستنجد بمراهق خائف آخر ليصبح الخوف هاجسًا لا أكثر.. تأثرا بمشاهد أفلام السينما والرعب المسلي خلف الشاشة.

بالفعل شغلت مُكيف هواء غرفتي على درجة باردة مُنعشة وأغلقت بابها، ثم استمتعت بحمام دافئ، سمعت باب الفيلا الرئيسي يُغلق فانتفضت للحظات لكنني تذكرت أنها ولا بد أم محمد تحضر الإفطار، خرجت من الحمام ونظرت إلى المنضدة بالخارج فوجدت صينية تغطيها قطعة قماش بيضاء، كشفتها فرأيت ما لذ وطاب وكُنت في شدة الجوع، فجلست بالخارج مُكتفيًا بالنور الرباني الآتي عبر النوافذ، أكلت وشربت حتى شبعت تمامًا، ثم بدأت جفوني تُغلق تلقائيًا، فذهبت إلى غرفتي.



فتحت الباب وأنا شبه نائم فاستقبلني هواء منعش بارد، استسلمت وتركت جسدي لينام في هدوء، لكن مُشاهدة مُكيف الهواء مُغلقًا جعلت جفوني تُفتح عن آخرها ولا تغلق مرة أخرى، استجمعت شجاعتي وخرجت مُسرعًا إلى «أم محمد» أناديها بصوت عالٍ:

- «أم محمد» إنتي طفيتي التكييف اللي عندي؟

جاءني صوتها عاليًا:

- التكييف؟ آه.. لأ.. لأ مش فاكرة.

لم أدرِ ماذا أقول أو أفعل فأردفت في عفوية: «الشمس ضربت نافوخها ولا إيه؟ لو هي ماطفتوش.. مين اللي طفاه؟ أنا كنت مشغله؟»..

اقتربت أم محمد وابتسمت ابتسامة بلهاء وكأنها تذكرت شيئًا:

- آآآآه.. يمكن فصل لما النور قطع، ما هو لو النور رجع مش هيشتغل لوحده لازم تشغله.

تنفست الصعداء وفرحت بفطنتها وفرحت بانقطاع التيار الكهربائي لأول مرة في حياتي، بعد أن هدأت شعرت بالنعاس مرة أخرى، فدخلت وأغلقت الباب في هدوء مُتجهًا إلى غرفتي.

نظرت إلى المُكيف وتبسمت، شغلته ثم ارتميت على سريري



في تعب وكانت عيناي مُعلقتين على ساعة حائط تُشير عقاربها إلى الثانية عشرة ظهرًا، وبدأت أغط في نوم عميق ولم أشعر بشيء.

بعد عدة ساعات أخذت أستفيق شيئًا فشيئًا، هُيئ لي أن أحدًا يحاول أن يوقظني، يضربني على رأسي ضربات خفيفة، ومرات يضرب كف يدي! لم أستطع أن أجزم لأنني لم أكن في حالة تسمح بالتميز، فقلت في نفسي إنها أحلام وآثار ما أفكر فيه.

وفجأة ارتطمت بالأرض وكأنني سقطت من فوق السرير! وانتفضت على آلام في ظهري واستندت بيدي على الأرض. لم أستوعب ماذا حدث، قمت وأنا أحملق في الغرفة مذهولًا، كيف وقعت من فوق السرير؟! أنام دائمًا في منتصف السرير ولا أتحرك إلا فيما ندر! هذه هي المرة الأولى في حياتي التي أقع من فوق السرير! نظرت إلى مُكيف الهواء فوجدته مُغلقًا، لا بد أن التيار الكهربائي انقطع مرة أخرى، لكن كيف لم أستيقظ من شدة حرارة الغرفة؟

نظرت إلى عقارب الساعة أمامي فوجدتها الثانية عشرة! ما هذا الذي يحدث لي؟! لا أفهم شيئًا، تغلبت على أوجاع عظامي إثر الارتطام وقُمت فشغلت مُكيف الهواء.. خرجت إلى البلكونة فرأيت الظلام قد حل! هي الثانية عشرة بعد مُنتصف الليل إذن!



أيُعقل أنني نمت كل هذا دون أن أستيقظ، دون قلق أو دون إزعاج أم محمد وأولادها؟!

كان الهدوء يخيم على الفيلا بالداخل والخارج، وكانت البوابة الحديدية مُغلقة، كان واضحًا أن عائلة الخفير بأكملها نائمة لا أسمع لهم صوتًا، اطمأن قلبي لذلك، المهم أنهم موجودون. في حين انشغل عقلي بموضوع سقوطي الغريب هذا من فوق الفراش.

صرفت عقلي رغمًا عنه للتفكير في مشاعر الجوع المُسيطرة الآن، فقررت الذهاب إلى المطبخ لأرى ما به، ولسوء حظي لم أجد طعامًا لكن في طريقي عائدًا إلى الغرفة وجدت صينية الطعام وقد تركتها أم محمد مُغطاة كعادتها، ما أجملك يا «أم محمد»! لكن كيف لم أشعر بوجودها في البيت؟ ألهذا الحد كُنت مُتعبًا؟ نظرت حولي وكان الظلام دامسًا، أخذت الصينية هذه المرة إلى غرفتي فلم أشأ أن أبقى خارج الغرفة كثيرًا، دخلت الغرفة وأغلقتها ثم وضعت الطعام على المكتب، وبدأت ألتهم الدجاج مع الأرز والخضار وأستطعمها، لم أفكر في أي شيء آخر عدا ما أراه في الأطباق.

وفجأة بدأت أسمع حركة بالخارج، حركة خفيفة غير واضحة، كُنت قد شارفت على الانتهاء من وجبتي فتوقفت عن



المضغ وانتبهت، بدأ الصوت في العلو شيئًا فشيئًا، وكأنه صوت شوكة وسكين ترتطمان في طبق، شخص ما يأكل بالخارج! كيف؟ منذ بضع دقائق كنت بالخارج ولم يكن هناك أحد! لم أشعر أن أحدًا يُراقبني كما السابق أو أن أحدًا يختبئ! فمن هو؟ وماذا يأكل؟ لم يكن هناك أكل بالبيت كله إلا ما آكله الآن؟! ثم سمعت أصوات أطفال يضحكون ويلعبون في حرية! الصوت بلا شك يأتي من صالة استقبال البيت!

ازداد الصوت عُلوًّا حتى هُيئ لي أنه بات بجانبي، لم أستطع أن أعيد الملعقة مكانها على الصينية أو أن أبتلع ما كُنت أمضغ، انتابتني حالة من التوقف عن إصدار أي صوت، رُبما عن التنفس أيضًا، وبقيت صامتًا في انتظار من يأكل أو يحتفل أن ينتهي ويعود من حيث أتى!

فجأة سمعته يلقي بأدوات المائدة دفعة واحدة على الطبق فسكت الأطفال! أعتقد أنها إشارة انتهاء الطعام أو الغضب! وبقي السؤال: هل سيرحلون أم سيبدءون في فعل شيء آخر؟ مشيت على أطراف أصابعي إلى الباب فأدرت المفتاح مغلقًا الباب جيدًا، ثم مشيت بنفس الطريقة إلى السرير وجلست أنتظر ما سوف يُفعل بي، كانت عقارب الساعة الواحدة بعد منتصف الليل، اختفى الصوت نهائيًا حتى إنني شككت في قدراتي



العقلية، بل فكرت في أن أتفقد الخارج لكنني تراجعت عن الفكرة سريعًا، رُبما أفعل ذلك في وجود أم محمد صباحًا، تمددت في منتصف السرير جالسًا أنظر إلى الباب، وقد هدأت حدة التوتر، أسندت رأسي إلى الحائط ورائي فثقلت جفوني وأُغلقت عيوني شيئًا فشيئًا، أحسست بأطرافي تسترخي فتركتها وكنت في حاجة إلى ذلك. لكنني استيقظت مرة أخرى على نغز اليد الخفية ودقات قوية تأتي من الحائط، ثم على صوت يأتيني من خلفي! صوت يُلح كُنت أحسبه داخل أحد أحلامي، صوت رفيع يعبر بين أذني عبر الحائط، صوت يتكلم في حزم:

- إنت بتتحامى في نوح وحسن يا آدم؟ لا نوح ولا حسن هيرحموك مني..

انتفضت كمن لدغته عقرب وأخذت أردد في عفوية: «مين؟ إنت مين؟ مين؟» لكن الصوت لم يجبني، بل اختفى وشعرت بأنفاس ساخنة بجانبي! حينها سمعت دقات الساعة الثانية بعد منتصف الليل، هذه المرة كاد قلبي فعليًّا يتوقف.. هرعت إلى باب الغرفة فسمعت أصوات حركة عنيفة بالخارج خلف الباب مباشرة، وأدركت أني صرت محاصرًا في الغرفة مع صاحب هذا الصوت المرعب.

***



(١٠)

«نوح»

استفتيت قلبي كما تعودت دومًا، وجدت أن الحياة عبارة عن سلسلة من التجارب الكثيرة، تجارب ليست بالضرورة أن تكون ناجحة، قد يفشل أغلبها لكنها تُنتج بعض الخبرة والحكمة، وعليه فإني ماضٍ في صداقتي مع آدم عن إخلاص وزهد في أي مصلحة شخصية، وليكن ما يكون.

المشكلة تكمن أن هذا عكس ما يريده أبي، أبي الذي لا يعترف بصداقة خارج إطار العائلة، لكنني سوف أتعرف على أصدقاء جدد وأتعلم الكثير والكثير، هنا في باسوس وخارجها أيضًا، فالحياة مهما طالت قصيرة ونحن جميعًا نعيش فيها لنستمتع بها لا أن نسجن أنفسنا داخل جدران قاسية وعقول أكثر قسوة.

ذات مساء وبعد أن انتهيت من زيارة أحد أقاربي، عقدت العزم على مقابلة «آدم»، أردت أن أطمئن عليه وأرى كيف تسير أموره، أُحس دائمًا بمسئولية تجاهه لا أعلم لماذا؟ خاصة أنني قد غادرت بشكل غير لائق في المرة الأخيرة، تجاوزت البوابة



الحديدية المواربة، وتجاوزت «عم محمد» الذي كان مُنهمكًا في ضرب «مروان»، وعبرت الحديقة مُتجهًا إلى الباب، ضربت الجرس وانتظرت، بعد بُرهة رأيت خيال آدم من وراء زجاج الباب الكثيف المموج يأتي ثم يتنحى جانبًا ولا يفعل شيئًا، فأصابني القلق عليه، ثم سمعت صوت القرآن الكريم عاليًا يأتي من الداخل فاطمأننت، ضربت الجرس مرة ثانية فجاء صوت آدم خائفًا: «مين؟» فأجبته:

- أنا نوح.. افتح يا آدم..

فتح الباب قليلًا ونظر إلي ليتأكد، دخلت من خلال مساحة تكفيني بالكاد فأغلق آدم الباب على الفور وقد ظهر عليه الخوف والإرهاق، علا صوت مروان يصرخ في الخلفية وعم محمد ينهال بالسباب عليه لدخوله الفيلا مُتلصصًا!

وقفنا خلف الباب ننظر لبعضنا البعض لثوانٍ وكأن كلًّا منا يمسح مخ الآخر ليرى ما بداخله، ثم نطقت أخيرًا:

- مالك يا آدم؟ هتفضل تبصلي كده كتير؟ في إيه؟

لم يجبني وسار بحركة بطيئة لم أعهدها عليه إلى أقرب مقعد وجلس فكررت سؤالي:

- قول في إيه؟ شكلك غريب!

انهار آدم في البكاء وكأنه انتظر أن آتي ليفعل ذلك فتركته



حتى يهدأ، بعد أن مسح دموعه نظر إلي بعينين حمراوين عجيبتين، تغيرت ملامحه وقد تضاربت كل الأفكار في عقلي وقال بصوت لم أعهده:

- أنا لازم أسيب المكان ده، لكن مش عارف أعمل إيه. برضه ده بيتي...

- في إيه يا آدم فهمني؟

- فى واحد عايز يطفشني من البيت.

تدفقت الأفكار في عقلى وقُلت في هدوء واستفسار:

- واحد زي مين؟

لم تتغير ملامحه أو تتبدل، كذلك صوته العجيب، مال ناحيتي وأردف:

- الأكيد إنه مش من عيلة السعدني.

- يبقى من عيلة مين؟ في حد في دماغك؟

زاغت نظرات آدم قليلًا ونظر إلى السقف والجدران ثم اتسعت حدقة عينيه، وفجأة ابتسم ابتسامة غريبة ثم نزلت دموعه ونظر إلي في توسل وقال:

- إنت عارف يبقى مين.. مش عايز أقول.

كان مظهره مثيرًا للشفقة وقد مال برقبته ينظر إلى الأرض، أردت أن أساعده فألححت في سؤالي:



- قول مين يا آدم متخافش، أنا مش هسيبه.

اعتدل في جلسته ونظر إلي نظرة جامدة لم أستطع فهمها وقال في نبرة خائفة بصوت خافت:

- لو قلت هييجي، مش هقدر عليه ولا انت هتقدر عليه.

رجعت بظهري واستندت إلى الكرسي وأخذت أفكر في هذا الحديث.. لم أعلق لكنه استرسل:

- أنا لازم أتصرف وأمشي من هنا.. مش هيسيبني.

- كلم باباك ييجي.

نظر حوله وكأنه يتفقد أحدًا ما، مال إلي لكنه نظر إلى السقف ثم همس في أذني:

- لو قلتله هيئذيني، مش هيسيبنا كلنا، وبابا وماما كانوا هيتئذوا لو كانوا قعدوا أكتر من كده في الفيلا!

- مين اللي قالك الكلام ده؟

عاد ليهمس في أذني خائفًا:

- هو بنفسه، دي تاني مرة ييجي، بيكلمني من الحيطة.. مسابنيش طول الليل.. طول الليل يا نوح.. كل شوية كان بييجي! ولو حاولت أخرج كان بيمنعني.

- هو مين؟

- هو...



نظرت إليه في دهشة ثم ساد الصمت بيننا وقد صدمني كل ما مر به، آدم المسكين، سألته:

- بس قولي الأول إنت اللي شغلت القرآن؟

- لأ.. عم محمد..

حاولت أن أتحدث في موضوع آخر لأهدئ من روعه:

- يعني مش هنلعب النهارده؟

أدار رقبته ببطء إلى غرفته ونظر إلي في خوف، فأردت طمأنته:

- آدم.. متخافش أنا معاك.

- إنت معايا دلوقتي لكن مش هتبات معايا وتسمع صوته زيي.

- المهم إني معاك دلوقتي ووعد مني هحميك من أي أذى مهما كان، مش هسيبك.

نظر إلى عيني يتفحصهما، نهضت بسرعة وسرت نحو غرفته ثم وقفت ونظرت إليه فتبعني في خطًى بطيئة، دخلت الغرفة فشممت رائحة عفن تختلط بكثير من البخور، رأيت الحوائط وكأنها غُسلت من شيء ما، دوائر كبيرة وصغيرة كثيرة لونها غامق، ولاحظت كثيرًا من الأغطية والوسائد على سريره! ثم إنه قد نُقل من مكانه ليصبح ملاصقًا للحائط، فسألته في عفوية:



- ليه غيرت مكان السرير؟ كان الأول أحلى.

نظر إلي في حزن وقال:

- أنا اللي نقلته.

أردفت وأنا أجلس وأحضر البلاي ستيشن لنبدأ اللعب:

- ليه بقى؟ تغيير؟

- علشان كل ما أنام بيشيلني ويرميني من فوق السرير!

توقفت عن كل ما أفعله ونظرت إليه في دهشة ولم أعلق فأكمل حديثه:

- أيوه.. بتشال وأترمي على الأرض من ارتفاع كبير! في الأول كنت فاكر إني بتقلب وبقع على الأرض، رغم إني عمري ما كنت بتقلب في نومي، جبت المخدات دي وحطيتها على الجنبين كأني عيل صغير، برضه كنت بلاقي نفسي فجأة على الأرض.

- هو مين اللي بيرميك يا آدم؟

تلفت مذعورًا وقال في نبرة خافتة:

- هو.. هو يا نوح.. أنا معرفش اسمه.

بات واضحًا أنه خائف من مجرد ذكر اسمه فتجاهلت ما يقول وأكملت:

- وإيه اللي عرفك إنك بتترمي من ارتفاع؟ ما جايز بتقع فعلًا؟



- عرفت لما صحيت مرة قبل ما أترمي، صحيت وأنا فوق قريب من السقف، لقيت نفسي بنفس وضع نومي لكن فوق عند النجفة، مصدقتش نفسي.. قلت أكيد بحلم وحبيت أثبت لنفسي كده وجيت أتقلب.. وفي ثواني نزلت على الأرض، حتى شوف..

كشف آدم عن ملابسه ليريني آثار كدمات كثيرة وكبيرة بألوان مختلفة متفرقة في أنحاء جسده، أثار الأمر حيرتي وحزني عليه، من الذي يؤذى إنسانًا بوداعة آدم ولطفه؟! لم أرَ منه إلا كل الخير!

في الكون قوى كثيرة لم يختبرها الكثير بعد، حقائق لا يعترف بها الجاهل، ولن يعترف بها إلا عندما يُدركها، إلا عندما يحتار في أمرها ومعناها، ولا يعلم لماذا تقع له هو؟ لن يعلمها إلا عندما يستغيث في ألم، حينها وحينها فقط سوف يعترف بوجودها، لكن يبقى اللغز والسؤال.. لماذا؟

لن أتركك يا صديقي تدفع ثمن ذنب ليس ذنبك، سوف أكون بجانبك مهما كلفني الأمر، أردت أن أقويه فأردفت وقد تغيرت مشاعري إلى قوة مفاجئة وتحدٍّ:

- آدم.. اسمعني كويس، واضح إنك في مواجهة شيء كبير، عايزك تبقى قوي مش ضعيف، القوة بنستمدها من جوانا،



إحساس بتحسه وبتعيشه فبيتحول لحقيقة، اوعى تتخيل إنك ضعيف ومش قد أي حاجة، إنت أقوى لو بس صدقت ده.

نظر إلي في ذُعر وأشار بإصبعه إلى فوق، نظرت حيث يشير فوجدت شيئًا عجيبًا، لقد مُلئ السقف ببقع دماء لزجة وكثيفة مُعلقة لا تسقط! لم أفهم شيئًا لكن يجب أن أعترف أنني فوجئت تمامًا مما رأيت، وقفت صامتًا أفكر فيما يحدث، طلبت منه أن يقص علي ما حدث ففعل وظل يتلفت حوله أثناء الحكي، وأنا أطمئنه أنني لن أتركه، أنهى آدم قصته وساد الصمت، تحدثت أخيرًا وكأنني ألقنه تعاليم:

- آدم.. أنا هقولك حاجات عمري ما اتكلمت فيها غير مع أمي، ومخرجتش بره العيلة.

لم يجبني آدم حتى بإشارة، فاسترسلت:

- أنا كنت مسلم بالوراثة وأنا صغير، مع إني باسمع إن جدي كان بيخاف ربنا وبيصلي وبيعمل خير كتير، لكن أبويا عمره ما قالي صلي، ولا ادعي ربنا، لولا أمي كانت دايمًا بتعلمني كان زماني في حتة تانية خالص.

- مش فاهم قصدك!

- أنا عايزك تلجأ لربنا.. رب الكون هو اللي هينجيك من اللي بيحاول يئذيك.



استمع آدم إلي وكأنه في عالم آخر لكنه لم يكن كذلك.. نظر إلي وأردف كأنه يتذكر:

- أنا كمان عمري ما حد قالي اعمل ده وسيب ده، دينك بيقول كذا وخلاص.. لكن ده إيه علاقته باللى بقوهولك؟

- علاقة قوية، أنا اتطمنت عليك النهارده وأنا داخل وسامع سورة «البقرة» في البيت، افتكرتك انت اللي مشغلها.

ابتسم آدم في سخرية ولم يُعلق فأكملت حديثي:

- اللي عايزك تسيب مكانك لا أنا ولا انت هنقدر عليه يا آدم، واضح إن قوته أكبر بكتير..

نظر إلي بحسرة وضحك بصوت ثم نظر إلى الأرض في يأس فأردفت سريعًا:

- لكن ممكن نبقى أقوى منه أضعاف، لو مع ربنا.

اختفت ابتسامة آدم ونظر إلي بجدية وقال:

- ده أنا محصليش كل البلاوي دي إلا لما رحت صليت الجمعة في الجامع لأول مرة في حياتي.

ابتسمت وقد فهمت شيئًا فأردفت:

- بالضبط كده.. هو ده اللي عايزه، إنك أول ما تلجأ لربنا يدخل الشك قلبك من ناحيته، يربط بين الصلاة والخوف اللي بيرميه جواك، فكل ما تيجي تصلي وتقرب من ربنا تخاف من



اللي هيحصل بعد كده، علشان تقول الكلام اللي انت لسه قايله حالًا. لكن لأ... أنا عاوزك تتمسك بربنا أكتر وأكتر، وتقرب منه كمان، ما تفوتش فرض واحد، واقرأ القرآن دايمًا، لو بقيت مع ربنا مش ممكن مخلوق يغلبك.

أحسست بآدم قد هدأ قليلًا أو لعله يتدبر ما أقول فأكملت:

- خليك واثق إن النافع هو الله والضار هو الله.. الله وحده يا آدم، إحنا بنتغافل عن ده، وبنخاف من حاجات في الكون ميصحش نخاف منها وإحنا معاه، بنتخيل إن الحادثة هي اللي خلت فلان يبقى عاجز أو يموت مثلًا، الحادثة دي سبب علشان مخنا الضعيف يقدر يتقبل أقدار الله وحكمته، عقلنا بيقبل إن الدواء بيخفف الألم أو المرض لكن في الحقيقة هو الله، عارف ده معناه إيه؟

هذه المرة سألتني عيناه فأجبت:

- ده معناه إن ربنا عايزك ترجع له، عايزك تكون معاه، علشان كده حطك في الموقف الصعب ده.

- أنا مش قادر أستوعب أغلب كلامك، لكن أنا بأثق فيك وهعمل كل اللي تقولي عليه، بس أرجوك اوعدني ما تغيبش علي..

- يمكن ربنا سخرني لنجدتك، إنت ربنا معاك يا آدم



صدقني، لازم تصدق في ده.

- يبقى هتسيبني.. مش هلومك.. إذا كان أهلي سابوني..

تفهمت حينها أن صغر سن آدم وتنشئته وما يمر به الآن سوف تمنعه من فهم ما أقول، على الأقل الآن، فأسمعته الكلمة الوحيدة التي تطمئنه الآن إلى أن أرى ماذا سأفعل له ومعه:

- أنا معاك يا آدم.. وهنبتدي سوا، كل اللي اتعلمته من أمي هعلمهولك.

- وعد؟

- وعد.



(١١)

«آدم»

أيقظتني تلك اليد التي بدأت أعتاد على طريقتها في إيقاظي، وكأن أحدًا ينخزني بعصا مدببة كُلما طالت فترة نومي قليلًا عن المعتاد، استيقظت وجُلت ببصري في الغرفة تلقائيًا فلم أجد أحدًا، أستمع لكثير من الأصوات التي بتُّ آنَسُ لها بعد أن كُنت أخافها، أقنع نفسي أنها مجرد تخيلات، أبدأ الطقوس الصباحية بأن أستحم، لكنني لا أحب أن أرى ما صرت عليه في الفترة الأخيرة، فكلما خلعت ملابسي رأيت الكثير من الكدمات الزرقاء تغطي أجزاء كبيرة من جسدي، ألوان كثيرة تتداخل مع بعضها على جلدي، أضع المراهم المُسكنة وأرتدي ما يجب أن أرتديه وأنا مستسلم لا حيلة لي، لكن الآلام الناتجة عنها تعلن عن نفسها أحيانًا، نظرت إلى وجهي في المرآة المعلقة في الحمام، فرأيت كثيرًا من السواد قد التف حول عيني بقوة، أردت أن أنام لكنني لا أريد كدمات أخرى أعالجها، فكرت في أن أنام عند الخفير لكنني لم أستحسن الفكرة، فكرت في أن أذهب إلى حسن



لكني خجلت من ذلك وأنا أعلم أنه هو نفسه قد بدأ يخاف مني.

سمعت أم محمد تصرخ كالعادة في مروان كي لا يدخل الفيلا، فهي تهتم بنظافة الفيلا بشكل تفصيلي يوم الجمعة، غادرت البيت وذهبت إلى المسجد لأصلي الجمعة، لم أرَ أبي يواظب على صلاة الجمعة أو يحثني على أدائها من قبل، لكنني ذهبت ولا أعلم لماذا، بعد أن انتهيت وأثناء خروجي من المسجد أحسست بشيء غريب، وكأنني أعبر طريقًا إجباريًا لابد من عبوره للوصول، لكن الوصول إلى أين؟ لم أستشعر وجهتي بعد.

في طريق عودتي تذكرت «نوح» وأنني لم أره منذ فترة، دخلت الحديقة فرأيت مروان يجلس فيها، كان يأكل وقد امتلأ فمه عن آخره، دخلت البيت وحاولت تجاهل كل شيء، كانت أم محمد توشك على الانتهاء مما تفعله، لمحتها تنظر إلي وتبتسم وتقول: «تقبل الله» فأردفت في عفوية «شكرًا يا أم محمد» فضحكت! لكن كيف علمت بذهابي للمسجد؟ لم أكن على استعداد لسؤالها، كُنت أريد أن أستريح وحسب.

دخلت غرفتي وأغلقتها، أنا الذي لم أحب العيش في باسوس هدوئها فاخترع مخي أحداثًا مليئة بالتشويق والإثارة كي أتغلب على الهدوء الذي لم أعتده، أو ربما على أصوات الحديقة التي لا تهدأ في الليل، أليس هذا ما أردته وتمنيته عند مجيئنا إلى باسوس؟



مغامرة تغلب الملل؟ لكنني بالتأكيد لم أتمنّ أن أعيش وحدي مع الخفير وزوجته وأولادهما الممنوعين من دخول الفيلا! ليضربهم عم محمد إذا ما علم بدخولهم لدقائق، لو كنت في الإمارات الآن لكنت ألعب أو آكل مع أصدقائي في المطاعم العالمية.

قررت أن أتجاهل كل ما أفكر فيه، أن أرجع إلى طبيعتي؛ فأنا أحب اللعب كثيرًا، اللعب هو أهم مصدر للإلهاء، فعندما تلعب تنسى وتنتشي وتنشغل بشيء ليس حقيقيًّا، أترى كل ما حدث كان لعبة؟ أكان الصوت صوت عقلي؟ أيمكن أن يكون رفض عقلي وجودي هنا في باسوس في فيلا على النيل بمفردي هو ما يفعل بي هذا؟ وإذا كان كذلك هل أعتبر نفسي سويًّا بعد ذلك؟ كيف أتأكد أنني بخير؟

جلست أمام التليفزيون في غرفتي أشاهد برنامج «عالم الحيوان»، رأيت «فهدًا»...أحببت أن أكون مكانه وفي قوته، نعم أنا فهد مُفترس جائع أتجول في الغابة، أبحث عن فريسة، أمشي بين الأشجار وحيدًا في الشمس، تغلبني حرارتها فأتسلق شجرة عجوزًا ضخمة وافرة الظلال لتكون مخبئي حين الغروب، آخذ قيلولتي في هدوء غير مبالٍ بجوعي أو بما يحدث حولي في غابة لا تنصر إلا القوي، ولا ترحم الضعيف، تبدأ الشمس في الغروب فأستيقظ على مهل لأراها تختبئ بين الأشجار، أتمطى وأنزل من

أقترب أكثر، يُحِس الغزال بشيء مُريب فيتوقف عن الأكل وتنتبه

أذناه وجميع حواسه، أختبئ وراء شجرة ضخمة، ينظر الغزال

بطرفي عينيه يمينًا ويسارًا فلا يجد شيئًا يستدعي الخوف، فيعود

إلى اطمئنانه ويأكل مرة ثانية في سذاجة أعرفها، أقترب أكثر

وأكثر إلى أن أصبح أنا سيد الموقف، يلتفت الغزال فيراني فيعرف

مصيره، يجري بكل قوته لكن هيهات، أنا ملك السرعة على

الأرض، أجري وراءه وأضحك على ما تفعله الحياة بالكائنات

جميعها، هل خُلقنا وخُلق معنا حُب البقاء مع استمرار الشقاء؟

لماذا لا يُسلم نفسه في رضا ويوفر علينا هذا الشقاء الذي لن



ينتصر فيه وهو يعلم مُسبقًا، لكن يُعجبني إصراره، أكاد ألمس ظهره لكنه يُفلت، لا أريد أن أُمسك به الآن؛ لأنني أعشق المطاردة، وإن كُنت أنتصر في كل مرة، لأتلذذ بلحم ما آكله بعد تعب لأُرضي نفسي، ولأنني أستحق التمتع بالفوز بعد المُعاناة، يزيد الغزال من سرعته وتزداد ضربات قلبه ويزداد توتره، أُحب ما أرى حقًّا لكنني أيضًا سريع الملل، لا أجد شيئًا جديدًا، فهذا مشهد تكرر على أجدادنا وآبائنا وتعلمناه منهم، أوسِّع من فتحة أرجلي قليلًا، ثوانٍ تمر وأنا أثبت في ظهره، وهو ما زال يقاوم ويجتهد ويجري رغم الثقل فوق ظهره، فأباغته بغرز أنيابي في عنقه، عضة قوية ثم عضة أخرى أكثر قوة، يقع حزينًا تحت فكي وهو دامع العين، عضة أخيرة أغرس فيها كل فكي فينفجر الدم كالنافورة وأنا ألعق الدم المُنفجر في شهوة.

في هذه اللحظة العجيبة أحسست بانفجار الدماء على وجهي وعلى ذراعي، كأنها حقيقة، ألهذا الحد يمكن أن يكون الخيال ملموسًا؟ ألهذا الحد تعايشت مع خيالاتي؟ فتحت عيني ببطء فلم تكن الصورة واضحة، عادت الرؤية تدريجيًّا فرأيت لونًا أحمر في كل مكان، عادت الرؤية قوية فرأيت شيئًا لم أقوَ على رؤيته، أردت أن أصرخ في استغاثة، لكن لساني انعقد وكأنني أخرس.



ما هذا الذي أراه؟ بقعة دم كبيرة في وسط الغرفة! دم لزج طازج! بقع دم كثيرة منتشرة على جدران الغرفة! الدم يملأ ملابسي! وجهي ويدي وفمي!!!

وقفت بجانب كل هذا الدم ولا أدرى ماذا أفعل! ألم أكن فهدًا في الغابة؟ هل حقًا قتلت الغزال المُسالم؟ وإذا كان كذلك فكيف حضر دمه إلى غرفتي؟! ألم تنظف أم محمد الغرفة والبيت كله منذ قليل؟ بلى لقد دخلت الغرفة وكانت نظيفة أكثر من كل يوم! نظرت حولي لأعرف مصدر الدم فلم أجده، نظرت إلى السقف ويا هول ما رأيت! كان السقف هو مصدر الدم!!

بقعة دماء كبيرة بنفس مساحة بقعة الأرض وفي نفس مكانها! هل سقط الدم من السقف وانفجر في الغرفة كلها؟! لكن من أين؟ الدم يملأ الغرفة الآن ورائحة الموت أيضًا، أخذت دموعي تنهمر دون توقف ولم أستطع أن أتحكم في شيء على الإطلاق، حتى إنني تبولت على نفسي دون أن أدري فأختلط البول بالدم وأنا لا أقوى على الحركة، ثم رأيت الجدران تضيق علي وتضيق حتى كادت تطبق علي، فتحت باب الغرفة وهرولت إلى خارجها ثم خارج الفيلا وأنا أبكي وأصرخ بصوت عالٍ لم أختبره من قبل.

اتجهت نحو غرفة الخفير وكان وقت العصر قد مضى وهم يستفيقون من قيلولتهم، رآني عم محمد وزوجته فأصابها الهلع



والدهشة، نظر عم محمد إلي ونظر إلى الفيلا نظرة ذات مغزى لن أنساها.

جاء مروان ينظر إلي فنهرته أمه ليعود إلى الداخل، ظللت أبكي وأنا في حالة هستيرية حتى إنني لا أتذكر جميع ما قُلنا، أخيرًا تحدث الخفير في خوف:

- إيه يا ابني اللي حصل وإيه الدم ده كله؟!

أجبته ومخارج ألفاظي غير مفهومة من كثرة البكاء:

- كنت بلعب.. بتخيل بس.. بلعب فهد...

- إيه؟

- فهد.. وباكل غزال والدم.. معرفش إزاي جه والله ما أعرف...

أردفت أم محمد وقسماتها كلها تتعاطف معي في حنان أم:

- أنا لسه منضفة الفيلا كلها وأوضتك كانت نضيفة، إيه اللي حصل؟ الدم ده جوه؟ مين اللي جوه؟

لم أتوقف لحظة عن النشيج وأنا أقول:

- والله ما أعرف متين...

نظرت إلي بكل عطف:

- لا حول ولا قوة إلا بالله! تعال يا ابني وريني فين الدم ده..



قاطعها أبو محمد في حزم:

- استني جاي معاكي.

ثم التفت ناحية الغرفة وأعلن تعليماته لمروان:

- حسك عينك تيجي ورانا هقطع خبرك.. فاهم؟ اقعد مع اخواتك لحد ما نرجع.

اصطحباني معًا إلى داخل الفيلا، آثار أقدام دماء، إنهما قدماي بالطبع، دخلنا جميعًا الغرفة، ما إن رأيا مشهد الدماء حتى علت أصواتهما في غير انتظام: «الله أكبر.. الله أكبر» مرارًا وتكرارًا.

اقتربت أم محمد من الدماء وبدأت تشمها في ترقب وحذر وأبو محمد واجم كمن صعقته صاعقة، نظرت أم محمد لزوجها ولاح عليها قلق وخوف، لكنها استدعت نبرة مُختلفة لطمأنتي وقالت:

- ماتخافش مفيش حاجة.

ثم نظرت إلي بمنتهى الشفقة وقالت:

- ادخل دلوقتي حالًا استحمى وسيبلي هدومك في طبق لوحده في الحمام، وأنا هجيبلك هدوم تانية حالًا.. وإنت يا أبو محمد هاتلي من الحمام اللي فوق طبق وليفة ومساحة خليني أنضف بسرعة.

نظر إليها الرجل وعيناه تتحدثان نيابة عنه ولم يتحرك،



فزغرت له وأردفت في صوت عالٍ:

- ياللا يا راجل هتقف تبحلق في إيه؟ اللي حصل حصل.

ثم نظرت إلي مرة أخرى وأردفت:

- وانت يا آدم هتفضل واقف وشكلك كده؟ ياللا يا حبيبي خش استحمى كويس.

دخلت الحمام وفعلت كما قالت لي، سمعت صوت أذان المغرب واضحًا ولم أكن أهتم بصوت الأذان من قبل، لكنني أحسست بتعلقي به كتعلق غريق بقشة، جاء صوت أم محمد من الخارج لتعطيني منشفة وملابس نظيفة.

خرجت من الحمام فشاهدت أم محمد تهيئ المكان للنظافة فتلف سجادة صغيرة مليئة بالدم، وسمعت أبو محمد يتحدث إلى أحد عبر هاتف المنزل ويحثه على الإسراع، طلبت مني أم محمد أن أستريح مع ابنها مروان لحين انتهائها من التنظيف ففعلت على الفور، جلست مع مروان وباب الغرفة مفتوح، كان ينظر إلي في ذعر ولا يتكلم، ولما فعل كانت نبرته مُرتعشة فقال:

- هو صحيح الفيلا دي مسكونة؟ أنا بسمع كلام كتير إنها...

نظرت إليه وأنا أفكر، طريقته كانت توحي بأنه يعرف أكثر مما أعرف أنا، حين هممت بأن أسأله رأيت شيخًا يرتدي عمامة



ويستعيذ بالله ويدخل من البوابة الحديدية المُواربة ويستقبله أبو محمد فيدخلان معًا الفيلا.

خيم الليل علينا وكانت أضواء الفيلا كلها مُضاءة بالداخل والخارج، وجلجل لأول مرة صوت القرآن في الفيلا، ثم ظهر أخيرًا الخفير وزوجته والشيخ، توقفوا عند الغرفة ونظروا إلي، بدا على أم محمد التعب والإرهاق، نظرت إلي وحاولت أن تبتسم وقالت في وهن:

- أنا نضفت الأوضة والفيلا تاني وبقت زى الفل ما تقلقش، الشيخ معوض كمان قرا قرآن وبإذن الله مش هيبقى في حاجة، هدومك اتغسلت ونشرتها، إحنا مش هنجيب سيرة لأهلك، وانت كمان ما تجيبش سيرة علشان ميتخضوش حرام.

نظر إلي عم محمد وأردف:

- الشيخ معوض عايز يرقيك يا آدم.

- يعني إيه يرقيني؟

لاحت على الشيخ ملامح دهشة ونظر إلى الخفير ونظر إلي وأردف:

- عندك كام سنة يا آدم يا ابني؟

- ١٣

- عندك ١٣ سنة ومتعرفش يعني إيه رقية شرعية؟



ربت أبو محمد على كتف الشيخ وأردف:

- معلش يا شيخنا.. زي ما حكيتلك.

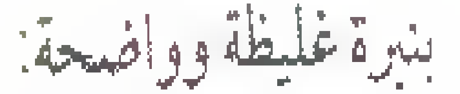
- لا حول ولا قوة إلا بالله! الرقية يا ابني هي كلام الله يحصنك من أي شر.

بدأ الشيخ في الرقية الشرعية، تركتهم يفعلون ما يرونه صحيحًا، لكن لماذا يحدث كل هذا في اليوم الوحيد الذي أذهب فيه إلى المسجد وأصلي لله؟ وكأنه عقاب؟ لم أبح بما يدور في خلدي لأحد، لكنني سوف أخبر «نوح» حينما أراه، لعله يعرف الإجابة.

خيرني أبو محمد بين المبيت عنده مع مروان أو المبيت في غرفتي كما أشاء، كان الاختيار صعبًا، لكنني إذا لم أبت بغرفتي الآن فمن سيبيت بها إذن؟ لا، لن أترك بيتي لأحد.

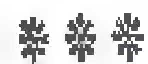
اصطحبني أبو محمد للداخل وترك زوجته تستريح من تعب اليوم، في حين كان يؤكد أنه سوف يظل مُستيقظًا من أجلي متى أريده، عاملني كوالد حنون ليلتها، دخلت الفيلا وكانت الأنوار كلها مُضاءة وصوت القرآن عاليًا فهدأت، أحسست كأنه حماية، أدخلني إلى غرفتي فرأيتها عادت نظيفة كما كانت تقريبًا فيما عدا بعض الآثار الطفيفة على الجدران والسقف اللعين، لم تكن كثيرة لكنها كانت واضحة تمامًا، أشار علي بترك الأنوار مضاءة كما هي




بنبرة غليظة وواضحة:

- براحتك يا آدم أنا حذرتك أكتر من مرة، لا «نوح» ولا غير «نوح» هيمنعوني منك.

ثم سكن الصوت واختفى تمامًا..


***





(١٢)

«حسن»

مُنذ أن تركني آدم وغادر البيت في آخر مرة التقيناء شيئان لم يتوقفا عن الحدوث، الأول هو سؤال أبي عن مدى علاقتي به، هل صداقتنا قوية؟ أم أنها تقف كما يعتقدون عند حدود الزيارات الأسرية بين الحين والآخر؟ الشيء الثاني إحساسي بالنذالة مع صديق طفولتي.

لكن ماذا أفعل بكل هذا القلق الذي استبد بوالدي؟ حتى وصل به الأمر لمُراقبتي! الطريف أنني أعلم كل ما يفعله، لكنه على يقين بأنني لا أدري من الأمر شيئًا، كم أحب سذاجة الآباء وهم يلعبون أدوارًا ليسوا مؤهلين لها! هُنا رأيت أن وقفتي مع نفسي واجبة الحدوث، فحقيقة الأمر أنني كُنت خائفًا جدًا، كُنت أستطيع أن أتواصل مع آدم لأطمئن عليه دون علم أبي، أستطيع أن أخدع أبي بسهولة. لكنني كُنت خائفًا من آدم وخائفًا كذلك على نفسي وعلى آدم أيضًا، مشاعر كثيرة مُتضاربة، بل كُنت خائفًا على بيتي لئلا يصيبه مكروه بمجيء آدم إليه، نعم أعترف.. كُنت جبانًا.



لكن بعد كثير من التفكير، لم أستطع أن أُعد نفسي من الرجال، ثم إني نظرت إلى حياة أبي بإمعان.. كانت حياة سيئة ولم أرِدْ أن أكررها؛ لأن اختبار الحياة يُباغتنا في أوقات حرجة، تذكرت خيانة أبي لأصدقائه، بل وتبادلهم أدوار الخسة مع بعضهم البعض، الآن هو بلا صديق حقيقي، كلها علاقات مصالح بحتة لا تدور إلا حول المال والأراضي والمواريث والعقارات. بلا أمان وبلا مأوى من أي كيد، فأنا لم أرَ صديقًا حقيقيًّا على مدار سنوات عمره يحبه بإخلاص، وكذلك لم أره يحب صديقًا له، لم يكن له صديق واحد وفي، أهذا ما أريد أن أكون عليه عندما أكبر؟ الصداقات القوية لا تُبنى في الكبر بل تُؤسس من الصغر.

فكرت في أمر الصداقة كثيرًا فوجدت أنها علاقة وطيدة لا تعصف بها رياح الحياة وإن اشتدت، علاقة لا تكون قوية إلا بالتغاضي والمُشاركة والإخلاص والمُثابرة، كثير من الحب هو الأهم، وهو ما يبقى في نهاية الرحلة.

تذكرت آدم وكل سنوات عمرنا البسيطة والجميلة، أردتها أن تكون أساسًا لصداقة قوية تعمر في الأرض على قدر أعمارنا فيها، فاتخذت قرارًا بمساعدة صديقي رغم كل خوفي وجُبني وما قد أواجهه؛ لهذا تحايلت على أبي وأمي ومن يرصد تحركاتي



في بلاهة وقررت الذهاب إلى فيلا آدم الخولي، وليكن ما يكون، كأن الحياة قد وهبتني الشجاعة دفعة واحدة.

على مقربة من بوابة الفيلا الحديدية رأيت الخفير عم محمد يقف أمامها وسط دائرة من حُراس البيوت المجاورة، يتحدث بصوت عالٍ غير مفهوم، لم أتبين مخارج ألفاظه، أظنني سمعتهم يرددون: «اللهم احفظنا»، ما خمنته أن الأمر مهم لالتفافهم حوله وإنصاتهم الشديد.

عندما اقتربت ورآني عم محمد خفت صوته وأشار بيده مُرحبًا فالتفت الجمع إلي ينظرون، كانت البوابة مفتوحة قليلًا وأطفالهم يلعبون بالقرب منهم، يقف مروان وحيدًا بالداخل ويبدو على غير عادته، لم أتبين حالته لكنه ليس مروان الذي أعرفه، نظراته غريبة جدًّا.

سلمت على مروان لكنه لم يُبالِ بي، عبرت الحديقة وضربت جرس الباب ووقفت أنتظر، ثم سمعت صوت القرآن الكريم بالداخل عاليًا، اطمأننت واضطرب قلبي في نفس الوقت، هذا يدل على أن شيئًا قويًّا قد حدث أثناء فترة غيابي؛ لأن آدم لم يكن ليفعل ذلك وحده دون سبب، لكن القرآن على أية حال حماية وحصن.

ظللت أنتظر أن يفتح آدم الباب، نظرت مرة أخرى إلى



دخلت البيت ونظرت إليه نظرة شاملة وكأنني أفحصه، لاحت كآبة غريبة على المكان بالرغم من كثرة الإضاءة، ورأيت صديقي وقد تبدل تمامًا، سبقني آدم بغير ترحيب أو حديث ودخل غرفته في خطًى بطيئة، دخلت الغرفة وراءه فهالني ما رأيت، دوائر قذرة على الحائط، من الواضح أنها كانت رسومًا بلون قوي، لكنها لم تُغسل جيدًا فتركت أثرًا على الحائط، رائحة عفن تذهب وتجيء في الغرفة، نظرت إلى صديقي وكان جالسًا في وسط سريره في حالة استسلام وبدا مُعتادًا على ما رأيته، وقفت في مُنتصف الغرفة تمامًا أنظر إلى كل هذا فأُغلق الباب



بعنف علينا دون لمسه! انتفضت وقد تملكني الفزع وأنا أنظر إلى صديقي الذي باتت ملامحه غريبة علي وضحك بصوت عالٍ أفزعني أكثر، سألت آدم إذا ما كُنا وحدنا في البيت فلم يُجبني إجابة مُريحة، ابتسم رغمًا عنه ثم ضحك ضحكة عجيبة وقال: «يعنى»!

تسمرت مكاني وقد تأكدت أنه قد أصيب بمس شيطاني، لكن كل من بالخارج رأوني أدخل فلماذا لم يحذرني أحدهم؟ لماذا لم يُحذرني مروان؟ استمر آدم في الضحك بهستيريا دون توقف لدقيقة كاملة حتى إنني ظننت أن قلبي توقف للحظات، ثم عاد يخفق عندما توقف آدم عن الضحك ونظر إلي في شفقة، في هذه اللحظة أحسست بشيء نزل من فوق على قميصي فنظرت أتفقده فإذا بي أرى دماء!! هالني المنظر ونظرت تلقائيًا إلى السقف فشاهدت دماء لونها داكن شبه مُتجلطة، لكن جزءًا منها سائح يسيل في هدوء ويتجمع في منتصف الغرفة وقد سالت هذا النقطة على قميصي!

عرفت منذ أن رأيت هذا الكائن أن الأمر ليس بسيطًا، لكنني لم أكن لأتخيل ما أرى أبدًا أو حتى أصدقه، تعامل آدم مع الأمر ببساطة وأشار علي بالجلوس وقال:

- اقعد يا حسن متخافش.



شيء بداخلي لم يستطع أن يجلس على كرسي المكتب حيث رأيت الكائن جالسًا عليه آخر مرة، نظرت إلى كرسي في ركن الغرفة فهممت أن أجلس عليه فنهاني آدم في سرعة وحزم وكانت قد أعلنت ملامح صديقي عن جدية لم أعهدها عنه:

- لأ.. بلاش هنا.. اقعد على كرسي المكتب أحسن.

توجست مما قال خيفة فسألته:

- إشمعنى؟

- من غير إشمعنى، من غير ليه، مش عايز أسئلة كتير، المهم.. إيه اللي فكرك بيا يا حسن؟

فهمت أن صديقي يريد حقه مني فلم أمانع:

- جاي أقف جنبك في اللي انت فيه ده.

ضحك آدم ضحكة عالية مُريبة مرة ثانية لم تُخِفني هذه المرة وقال:

- يااااه دلوقتي بس افتكرت؟

- أنا عارف إن حقك متعرفنيش تاني، أنا بعترف إني خُفت.. أنا بني آدم في الآخر برضه، خفت من كل حاجة.

- ودلوقتي مش خايف؟

- دلوقتي حسيت إني كنت جبان وقليل الأصل معاك، هو ده اللي عايز تسمعه يا آدم صح؟ أيوه كنت خايف من كل حاجة



حتى منك، واكتشفت إني منستش الكورة اللي اختفت زمان في الجنينة لما كنا بنلعب، فاكرها طبعًا، ولا نسيت الحواديت اللي كان أهل البلد بيحكوها عن الفيلا وإحنا صغيرين، وسمعتها كذا مرة من كذا حد وأنا صغير.

ضاقت عينا آدم وكأنه يتذكر معي وسألني:

- حواديت إيه؟

- حاجات زي إن الفيلا مسكونة يا آدم، صوت الضحك العالي اللي كان بيسمعه عم محمد جاي من أوض النوم اللي فوق وانتم مسافرين! النور اللي بيولع لوحده ويطفي كأن حد قاعد! ابنه اللي قلبه وقف في الأوضة اللي فوق بعد ما قعد يصرخ فترة.. ده اللي فاكره دلوقتي.

نظر إلي آدم وكأنه يتذكر شيئًا:

- ابنه مات فوق؟ إزاي؟

- ماعرفش تفاصيل كتير، كلها حواديت، لكن اللي سمعته إن أمه وأبوه كانوا معاه تقريبًا، هو كان في الدور اللي فوق وقعد يلعب كتير، الباب قفل عليه زي ما قفل علينا حالًا كده وفي الآخر لقوه ميت. وحكايات تانية كتير مرعبة، ومع ذلك جيتلك اهو علشان تعرف بحبك قد إيه..

- سمعت الكلام ده منين؟



- مرة زمان كانت أمي بتحكي لصاحبتها.

- ومامتك عرفت منين؟

- معرفش يا آدم مسألتهاش.. أنا كنت بتصنت عليهم.

- وبعد ما الباب قفل على الولد؟

- الباب مرضيش يفتح، والولد فضل يصرخ ويقول كلام مش مفهوم، على ما كسروا الباب الولد كان مات، اللي يقول قلبه وقف واللي يقول اتخنق، هو ده اللي سمعناه لكن محدش عارف الحقيقة، ما عندك أهله بره أهم اسألهم.

- ولو هو الموضوع كده فضلوا قاعدين ليه في المكان؟

- يمكن ملهمش حتة تانية يروحوها؟

قام آدم من مكانه وسمعته يقول:

- زي ما الحمام قفل عليًا!

أحسست أن شيئًا ما جعله يتخلى عن استسلامه، كأنه يريد الحقيقة، أخذ يروح ويجيء في الغرفة ذهابًا وإيابًا ثم نظر إلي وقال:

- أنا الكلام ده مش داخل دماغي! لو انت مكانهم تقعد في المكان تاني بعد ما ابنك مات فيه؟ وتقعد ليه؟

- أنا لأ.. بس أنا مش مكانهم يا آدم، كل واحد له ظروفه، أكيد محتاجين، وبعدين أهلك أهل كرم وعمرهم ما بخلوا على



عم محمد ولا مراته ولا ولاده بحاجة، ثم إنها شغلانة مريحة جدًا، أهل البيت مش قاعدين يقرفوهم واعمل وسوّي، دول بييجوا زيارات كل فين وفين، وكل حاجة ماشية بالتليفون، أكيد لهم حسبة تانية.

- امممممم.. عمومًا كله هيبان.

- هما مش كانوا معاك الفترة اللي فاتت دي؟

- كانت أم محمد بتروح وتيجي تنضف.. تطبخ.. كده يعني.

- وكنت بتقعد لوحدك؟ ولا بتخرج ولا إيه؟

- كان نوح بييجي يقعد معايا..

- مين نوح ده يا آدم؟

- ده واد صاحبي كده بس جدع.. مش زي ناس.

- يا عم خلصنا. ماشي شكرًا.

- بعرفك بس الغريب بيعمل إيه.

- والغريب ده مخافش؟

- لأ مخافش.. بس يمكن علشان متدين وكل ما ييجي بيديني درس دين، بيعلمني إزاي أواجه اللي بيمر بيا من غير فزع، وكمان بدأت أصلي..

- طيب والله كويس.. ابقى عرفني عليه الواد ده.

- ماشي.



قُمت من مكاني واقتربت من آدم ومددت يدي مُصافحًا ونظرت له وقلت:

- يعني زعلان برضه ولا إيه؟

ابتسم آدم واقترب مصافحًا وكأنه سيضربني:

- عندي حاجات تاني أهم من إني أزعل من واحد تافه زيك..

ورغمًا عنا ابتسمنا معًا.

***



بجانبي ولا ينظر إلي، فتوقفت عن السير، لكنه توقف أيضًا ولم ينظر إلي! وكنت أعلم أنه كابوس جديد، حتى وأنا بداخله.

أخذت ألتفت يمينًا ويسارًا أبحث عن إنسان يساعدني فلم أجد مخلوقًا، كان الشارع خاليًا من كل المخلوقات إلا أنا وهذا الكلب، مشيت مرة ثانية فواصل الكلب السير بجانبي، أسرعت السير فأسرع، أبطأت فأبطأ، قطعت الطريق فواصل معي، توقفت فتوقف، ارتعبت، استجمعت قواي وحاولت أن أزيحه عن طريقي لكنه لم يبالِ ولم ينظر لي، توقفت مكاني لبرهة كي أفكر ماذا أفعل وأنا أنظر إليه، فجلس على الأرض ورفع عينيه



إلي وكأنه يبادلني التفكير، ساورني الشك أنه ربما يقرأ أفكاري!
فارتعبت أكثر لكن لم يكن لدي خطة للهروب وقد بدا أنه يريد
شيئًا مني تحديدًا، أو ربما يُريد أن يفتك بي، لكنني لا أستطيع أن
أقف مكاني كثيرًا فاتخذت قرارًا بالسير مرة أخرى، حالما اتخذته
نهض الكلب مرة أخرى ونظر لي مُستعدًّا لإكمال الطريق، تجاهلت
نظرته ومشيت فمشى بجانبي وقد اقترب هذه المرة! وأخذ في
الاقتراب أكثر فصرخت، وفجأة ظهر رجل يُمسك بيده مصحفًا
وأخذ ينهى الكلب عن السير معي، أشار إلي الرجل بالسير وقال
في حزم: «كمل طريقك انت وسيبهولي»، كان وجه الرجل سمحًا
فسرت في طريقي وأنا مطمئن إلى حد كبير.

مشيت قليلًا لكنني سمعت صوت زحف ثم فحيح! ورأيت
شيئًا ضخمًا طويلًا يتعرج يأتي في مقابلتي من بعيد، لم أتبين ما هو،
لكنه يتلوى على الأرض بسرعة فائقة، إلى أن بات قريبًا مني فقام
وانتصب بشكل عجيب فأصبح في طول بناية، كان ثُعبانًا أسود
ضخمًا لم أر مثيله أبدًا، ثُعبانًا جائعًا وغاضبًا، ثُعبانًا يتكلم! ينظر
من فوق إلى كلتا عينيَّ في صرامة وهو يقول:

- رايح فين؟

تلجم لساني وأنا أنظر إليه وإلى حجمه وكان ذيله يتلوى في
مكر على الأرض، أيقنت أن أمري قد انتهى لكن بقيت أمنيتي



ألا أتألم في موتي، اقترب الثُّعبان وسأل ببطء وهدوء وربما توعد:

- يقول.. رايح فين؟

تصببت عرقًا وحاولت أن أتكلم فقلت في صوت أعتقد أنه لم يخرج من حلقي:

- معرفش.

وفجأة ظهر الكلب مرة أخرى يحاصرني من ورائي، تساءلت: ماذا فعل بحامل المُصحف؟ أم أنه تحايل عليه ليأتيني من اتجاه آخر؟ نظر الكلب إلى الثعبان نظرة عجيبة، وفهمت أن الكلب كان يريدني أن أسير في طريق معين من البداية للوصول إلى هذا الثعبان.

هنا ظهر نوح من شارع جانبي أخافَ الكلب وأرجعَه إلى الوراء! ألقى نوح زرعة صبار ضخمة مليئة بالأشواك فجرى إليها الثعبان في سرعة كبيرة والتهمها، نظر الكلب في هلع إلى الثعبان الذي بدأ يخرج شوك الصبار من جلده وهو يصارع الموت، نظر الثعبان إلى نوح وهو يتألم، ثم رجع الكلب إلى الخلف ونظر إلى نوح مرة أخرى في خوف وأخذ يعدو في الاتجاه المُعاكس، نظر نوح إلى الثُّعبان في شفقة وأخذني من يدي إلى أن أوصلني إلى حافلة تُوصلني إلى وجهتي، بدأ النور يسطع مُعلنًا اختفاء الظلام، ثم أوصاني نوح بكلمات كثيرة لا أتذكرها



وودعني واختفى!

استيقظت من هذا الكابوس العجيب ألهث وأحس بدقات قلبي تتسارع وتوجعني، وضعت يدي على صدري في إعياء، كان ضوء خفيف يشق ظلام الغرفة، فهُيِئ لي أني أرى «نوح» يمشي في الغرفة ويدخل في الحائط! ما أصعب الهذيان! نهضت لاهثًا وتخبطت أكثر من مرة في الظلام وكدت أسقط حتى فتحت البلكونة، لم يتبقَّ على أذان الفجر إلا وقت قليل، لم أكن قد أفقت بشكل كامل، رأيت «نوح» يجري في الحديقة بين الأشجار، أخذت أفرك عيني بكلتا يديَّ، نظرت مرة أخرى فلم أجد شيئًا، سيطر الحلم على عقلي سيطرة كاملة، دخلت الغرفة مرة أخرى وجلست على السرير أفكر، مكثت مكاني لدقائق لا أستطيع أن أسلم بأن ما عشته منذ قليل كان مجرد كابوس! بدا كأنه حقيقي، أحاول أن أتذكر وصايا «نوح» فلا أستطيع.

ثم انتبهت لأصوات ضحك عالية تأتي من الحائط خلفي، أنظر خلفي فتنتقل الأصوات على يميني، أنظر تجاهها فتنتقل على يساري فأنظر إلى اليسار لكنها انتقلت إلى الأعلى، كأنها آتية من الدور العلوي، نظرت إلى السقف فرأيت الدم المتجلط عليه كأنه يسيح وينزل على الأرض ببطء في نقط منتظمة! نظرت إلى الأرض فلم أجد آثارًا للدماء في حين استمرت الدماء في الهبوط!



رغم كل الخوف بداخلي ولأول مرة قررت أن أستكشف ما يدور حولي، تقدمت ببطء نحو باب الغرفة وفتحتها، قبل أن أخرج سمعت صوت خطوات تصعد السلم وصرير يأتي منه، الآن أنا على يقين من وجود أحد أو شيء بالبيت، بقي أن أكون رجلًا كما يظنني أبي فأدافع عن نفسي.

خرجت من الغرفة ونظرت إلى صالة الاستقبال الخاوية الهادئة، ثم تابعت النظر لأعلى في ترقب فسمعت صوت باب يُغلق! الصوت الآن يوجهني ويُرشدني إلى الاتجاه الصحيح للقائه! لكن من هو؟

صعدت السلم الخشبي وقد تغلب فضولي على خوفي، كانت كل أبواب الغرف مُغلقة والظلام يخيم في كآبة على المكان، فهممت أن أنزل، وبمجرد أن أدرت ظهري ونزلت درجة واحدة، فُتح باب غرفة الضيوف لكن بقي مُواربًا! التفت في بطء واستسلام لمواجهة مصيري فرأيت خيالًا يتلوى! لكن هذه المرة تغلب خوفي على أي إحساس موجود، هممت أن أصعد مرة ثانية لكن سمعت صوت الجرس وخبطات غير منتظمة على باب الفيلا الرئيسي، حمدت الله ونزلت لأجيبه دون تفكير، كان نوح هو الطارق، وقفت أمامه مُتخبط المشاعر دون إلقاء تحية، أشعر وكأنه كان معي منذ قليل يدفع عني الأذى، ابتسم نوح



ونظر إلي وقال:

- معلش يا آدم أنا جاي في وقت غريب..

لم أجبه ووقفت أنظر له في شرود فتابع:

- أمشي طيب؟ أنا عارف إني جاي في وقت...

تنبهت إلى ما يقوله وقاطعته:

- لأ مش مشكلة ولا حاجة.. أنا صاحي بقالي شوية، ادخل.

تركت الباب ودخلت مباشرة إلى غرفتي وعيني مازالت مُعلقة بالدور العلوي، أغلق نوح الباب ودخل ورائي الغرفة وأغلق الباب، جلس على كرسي المكتب بينما استلقيت أنا على السرير، بدا نوح جادًّا بعض الشيء وأردف:

- إنت مش متعود تصحى على الفجر؟

- يعني على حسب.

- يعني صحيتك؟

أعدت النظر إليه هذه المرة فوجدته يرتدي نفس الملابس التي شاهدته بها في الحلم! فلم أجب عن سؤاله فأردف:

- إنت كويس يا آدم؟ حصل حاجة؟ أنا عارف إني جاي بدري جدًّا بس...

قاطعته مُسرعًا:

- حلمت بيك حلم عجيب، مش مهم التفاصيل بس أنا



كنت في خطر وانت أنقذتني،

نظر إلي نوح ولم يعلق فتابعت:

- زى ما أنقذتني دلوقتي كده.. حاجة عجيبة!

نظرت إلى السقف فنظر نوح إليه وقال:

- استعد تصلي الفجر.

- هصلي لما يأذن.. هو انت إزاي معندكش فضول تعرف الحلم؟

- لأني تقريبًا عارفه أو تقدر تقول إني حلمت نفس الحلم، علشان كده جيتلك دلوقتي أتطمن عليك.

- إيه؟!

- مش عايزك يفوتك فرض يا آدم.. ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبٗا مَّوۡقُوتٗا﴾[1].

ثم تابع:

- الصلاة على وقتها يا آدم زي ما اتفقنا.. والأذكار للتحصين.. فاهم؟

- مش فاهم إنت ليه بتقول كده!

- «إذا أظلم القلب من ذكر الله ظهرت الشياطين».

زاد فضولي بهذه الجملة.. أيعلم «نوح» شيئًا لا أعلمه؟

---

(١) [النساء: ١٠٣].



قاطعني «نوح» وقد نهض واقفًا:

- أنا لازم أمشي دلوقتي..

نظرت إليه وقد تملكني فضولي للمرة الثانية في أقل من ساعة في هذا اليوم العجيب وقلت:

- إنت جاي علشان تقولي الصلاة على وقتها والأذكار وتمشي؟

- اسمع يا آدم.. لو عايز أي حاجة في الدنيا هتقدر عليها بس تتحكم في مخك، المخ هو اللي بيدي إشارات لأي حاجة في الجسم، حاول تتحكم في مخك، إقنع نفسك إنك مش خايف وإنك قوي لأنك مع ربنا، هتبقى مش خايف وهتبقى قوي، ربنا هيكون معاك.

- طيب قولي تعالَ معايا البيت يا أخي بدل ما انت شايفني قاعد لوحدي مرعوب وعمال تدي نصايح.

- الأيام دي عندي قلق في البيت مع أبويا، لكن أوعدك قريب جدًّا.

نهض «نوح» دون أن ينتظر ردًّا مني وخرج من الغرفة فخرجت معه، رأيته ينظر إلى السلم وإلى أعلى فطافت أسئلة كثيرة في رأسي، لماذا ينظر إلى أعلى؟ وكيف صادفه نفس الحلم؟ وقبل أن أسأله قال:



- أنا ماشي.. خليك انت في الأوضة ومتطلعش فوق مهما حصل، شغل سورة «البقرة» وصلي كل الصلوات على وقتها وأنا هبقى أعدي عليك.. متخافش.

نظرت إليه في استسلام دون فهم ودخلت إلى غرفتي وأغلقتها، لكني لم أسمع باب الفيلا يُغلق! لعل «نوح» أغلقه في هدوء، أم أنه مازال بالبيت؟ ما هذا الهراء؟ لماذا يتواجد «نوح» بالبيت؟

بعد ثوانٍ سمعت طرقًا على باب الفيلا، نظرت في الغرفة لعل نوح قد نسي شيئًا لكنها كانت خاوية، خرجت لأفتح الباب في توجس وكان حسن، نظرت إليه في ذهول؛ فلم تكن عادته أن يزورني في هذا الوقت المُبكر أيضًا! كان مظهره يوحي بالقلق فأشرت إليه بالدخول ودلفنا معًا إلى غرفتي، رأيته يتلفت حوله ثم يغلق باب الغرفة ويقف وراءه في قلق، فأردفت:

- غريبة.. جاى بدري برضه.. مالك إنت كمان؟

- أنا كمان يعني إيه؟

- نوح لسه خارج حالًا.. مشفتوش وانت داخل؟

- لأ... حالًا إمتى.

- ده لسه خارج حالًا.. أنا افتكرته نسي حاجة ورجع لما انت خبطت.



- مشفتش حد.

- إزاي؟! بقولك من ثواني يعني ملحقش يمشي الجنينة كلها للباب.

- يا آدم بقولك مشفتش حد..

- يمكن..

- لأ ما يمكنش.. أنا بقالي ربع ساعة بخبط على البوابة الحديد علشان يصحى عم محمد، ما يرضه الدنيا بدري قوي.. ده الفجر لسه هيأذن.

دار رأسي وحاولت أن أستوعب ما يقول حسن وأردفت:

- نعم؟ يعني البوابة مكنتش مفتوحة؟

- لأ.. إنت غبي؟ بقولك عم محمد كان نايم وفضلت أخبط ربع ساعة لحد ما صحي.

تذكرت أنني لم أسمع صوت الباب الرئيسي يُغلق، ثم إن «نوح» نصحني بعدم الخروج من الغرفة وعدم الصعود إلى فوق! أتراه هو من يفعل بي كل هذا؟ لكن لماذا وهو دائمًا ما يحثني على الصلاة والإيمان؟ توقف رأسي عن التفكير وأحسست بالعرق يتصبب مني، جلست ونظرت إلى حسن في خوف وهمست:

- وطي صوتك.. يظهر نوح لسه في البيت.

نظر إلي حسن في ذهول وضاقت عيناه كعادته عند السؤال



وأردف هامسًا:

- مش فاهم حاجة! نوح لسه في البيت ليه؟

- مش عارف.. بس كده عيلتكم بريئة من أي حاجة ممكن تحصلي حتى لو سحر، الموضوع طلع مع نوح اللي آمنت له ودخلته بيتي! كلام أبويا طلع صح أني معرفش حد غريب ومدخلوش البيت.. يا ريتني سمعت كلامه، فاكر لما قولتلي يمكن حد بيرمي سحر في البيت؟ تفتكر هو؟

- أنا معرفوش أصلًا يا آدم لكن طبعًا كلام أبوك صح.. المهم هنعمل إيه دلوقتي؟

- مش عارف.. طيب إنت إيه اللي جابك بدري؟

- حلمت حلم عجيب..

- نعم؟!

- عيلة شكلها غريب بتتخانق مع بعض، إنت واقف جنبهم، الغريب إنهم بيتخانقوا هنا في البيت! بعدين شفت كلب وتعبان واقفين قدامك وفي واحد ملامحه مش باينة هو اللي أنقذك، أنا مش عارف إيه ده بس خُفت وقلقت عليك، ومكنتش عارف آخد التليفون عندي في الأوضة أكلمك، قلت قبل ما حد يصحى أجيلك صد رد.

وفجأة سمعنا أم محمد تصرخ باسمي وتطرق الباب بعنف،



أسرعت وحسن لنفتح الباب فرأيتها تنظر إلي في فزع وهي تردد:

- إيه اللي حصل؟ مالك؟

نظرت إليها ذاهلًا وأردفت:

- مالي؟!

تعجبتْ وتأملتني وقد لحقها زوجها واقفًا وراءها ينظر إلي في فزع ثم نظر إلى حسن في قلق وقال:

- مالك يا آدم بتصرخ ليه؟

نظرت إلى حسن مُتعجبًا وإليهما مُبتسمًا مُردفًا:

- أنا مصرختش ولا فتحت بقي!

أردفت أم محمد في يقين:

- إزاي يا ابني ده صوت صريخك فزعنا.. إحنا قلنا في مصيبة!

سادت لحظات من الصمت ثم قلت:

- يمكن حد من الجيران؟

أردفت أم محمد في سرعة:

- يا ابني بقولك صوتك إنت.. بتعيط وتصرخ.. هو أنا هتوه عنك؟

نظر عم محمد إلى حسن في شك وقال:

- لا مؤاخذة يا حسن يا ابني نسيت أسألك.. هو أنت إيه



اللي جايبك بدري كده؟

نظر إلي حسن في قلق وقال مُتلعثمًا:

- عادي.. جاي لصاحبي.. في حاجة؟

ساد الصمت مرة أخرى لكن نظرات الشك من الخفير وزوجته لم تفارق حسن الذي بدأ يتعرق، عقدت أم محمد ذراعيها وهمت بأن تقول شيئًا فربت زوجها على كتفها وقال:

- ياللا يا أم محمد آدم كويس.. يمكن كان كابوس..

أردفت:

- يمكن إزاااي.. إنت سمعته معايا..

قاطعها في حزم:

- بقولك كابوس يا وليه.. امشي قدامي..

نظر إلي عم محمد بعينين حمراوين وقال:

- لو احتجت حاجة نادي علينا يا آدم، ولما صاحبك يمشي اقفل الباب كويس.. أنا هروح أتوضا وأصلي الفجر..

ذهبا بخطًى ثقيلة وأغلقت الباب ونظرت إلى حسن وقد وجمت، دخلنا غرفتي مرة أخرى يغلب صمتنا الموقف، لم أستطع أن أعلق بشيء، لكن حسن قد فهم أن الأمر أكبر من مجرد حلم، في هذه اللحظة بدأت الدماء المتجلطة في السقف تتساقط بغزارة كالمطر، تسمرت أعيننا على السقف لدقائق في خوف، أفقت على



يد حسن تنغزني وهو يحملق في ركن الغرفة متصببًا كثيرًا من العرق، فوجدت ثعبانًا أبيض كبيرًا يتلوى في ركن الغرفة وينظر إلينا كل على حدة، كأنه يفاضل بيننا! هُيئ إلي أنه يضحك! لا أعلم من أين جاء! أنا وصديقي تتصبب عرقًا ونُمسك بأيدي بعضنا البعض، نفتح باب الغرفة بسرعة ونخرج، ثم أمسكت مقبض الباب لأُحكم إغلاق الباب على الثعبان، كان حسن يرتعش وارتجفت أنا عندما رأيت راقصة الباليه في اللوحة لا تنظر إلي بل تعطيني ظهرها!! ظللت مُندهشًا مُحملقًا في اللوحة وحسن يحثني على المُغادرة وهو يجذبني من ملابسي، حتى سمعنا صوت امرأة ورجل يتشاجران بكلمات غير مفهومة داخل غرفتي! صرخنا بفزع وهرعنا إلى الخارج غير مُصدقين لنستغيث بعم محمد في هلع.

* * *



(١٤)

«نوح»

أحسست بالوضاعة أمام صديقي آدم إذا ما علم الحقيقة، كيف يأتمنني آدم على نفسه وهو وحيد خائف، وأنا أعلم ما يفعله به أبي وأقف صامتًا لا أجرؤ على الاعتراض؟! كيف أخنع لأوامره كسابق عهد أمي الذي كان سببًا في عدم إعجابي بها في الصغر، أهذا ما أرتضيه لنفسي؟ خيانة من ائتمنني؟! لا والله لا أرضى بهذا أبدًا.

بعد أن تركت آدم، جلست أفكر في غرفتي فيما يجب علي فعله، أفكر في الطريق الصحيح، يجب أن أوقظ أبي من غفلته، يجب أن آخذ بيده إلى طريق الله كما فعلت أمي معي، يجب أن أتصرف..

في هذه الأثناء دخل أبي الغرفة دون أن ألحظه، توقف أمامي فوقفت احترامًا. رأيت وجهه غاضبًا وواجمًا فخفق قلبي بشدة ولم أتفاءل بقدومه. ظل ينظر إلي في غضب ولم يُشِر لنجلس كعادته فظللت واقفًا، ثم أنهى الصمت قائلًا:



- إنت بتتجرأ على أبوك يا نوح؟

- العفو يا والدي.

صرخ والدي في وجهي بقوة:

- عفو إيه؟ إنت بتتحداني؟

لم أنطق كلمة أخرى بعدها، سار إلى الشباك في الغرفة وأطل منه قليلًا ثم التفت إلي وقال:

- أنا عارف علاقتك بآدم من أول ما بدأت، وحذرتك وانت مسمعتش كلامي، رغم تحذيري لك ألف مرة متصاحبش من بره العيلة سِبتك بمزاجي، عارف سِبتك ليه؟

ارتجفت قليلًا وأنا أجيبه:

- ليه؟

- علشان الخبرة.. علشان تعرف قيمة جنسك كويس، علشان تعرف تنمي قدراتك وتعرف تستغلها، كنت فاكرك شاطر.

- وهي الشطارة إني أأذي إنسان بريء ملوش دعوى بحاجة؟

- ملناش دعوى بريء.. ظالم، مش المفروض تتعاطف معاه خالص.

- يا بابا آدم إنسان مُسالم ميئذيش حد، وانت عارف أصله



كويس، حرام الولد خايف على طول.

- إنت بتدافع عنه ليه؟

- إنسان مسالم وعمره ما أذى حد.. «المسلم لا يؤذي مخلوق».

ضحك «عبد الله» ضحكة مخيفة عالية ثم استطرد قائلًا:

- وتفتكر لو عرف انت مين برضه هيفضل يحبك؟ هل تعتقد إنه هيفتكرلك الخير اللي عملته معاه؟

فاجأني سؤاله الذي لم أطرحه على نفسي يومًا.. فأردف وقد عرف ما أفكر فيه:

- البني آدمين ملهومش أمان، ولو انت مؤمن باللي أمك قالتهولك، الكتاب اللي انت مؤمن بيه.. وصف الإنسان بأنه جاهل وطاغي وظالم وجبان وغير شاكر للنعم، هي دي حقيقة الإنسان اللي انت فرحان بصداقته.

- أنا مش بتكلم على الإنسان في العموم أنا بتكلم عن آدم صاحبي، ملوش لازمة اللي انت بتعمله معاه أرجوك لمجرد إني بحبه ويقينا أصحاب، هو ذنبه إيه؟

- يظهر إن خوفي عليك من الأول بوّظلك وكملت خيبتك بالدروس الهايفة اللي اتعلمتها من أمك.

- عمر الدين ما كان هيافة.. إحنا اتخلقنا في الأساس للعبادة



والـ....

قاطعني بحدة:

- لما أتكلم ما تجادلش.. من إمتى بتقف قصادي وتعارضني؟ أنا ممكن أحبسك..

امتلكت أخيرًا قدرًا من الشجاعة يجعلني أتحدث أمامه فأردفت في ثبات:

- أنا لما بعارضك في الحق، زي ما الحياة والموت حق، الله حق والدين حق والحساب حق، الجنة والنار حق، علشان كده خايف عليك من نفسك ومن مصيرك، أنا بحبك وبحترمك وبخاف منك علشان إنت والدي، لكن مش بخاف من أي حاجة لأني قريب من ربنا، بيده الملك وهو على كل شيء قدير.

- طيب يا نوح.. خاف على مصيرك انت وصاحبك من اللحظة دي.

ثم تركني وذهب غاضبًا وهو يتوعدني أنا وآدم.. ولم أستطع أن أوقف طوفان غضبه، فعلمت أنني يجب أن أستعين بأمي.

❋❋❋



(١٥)

«عم محمد»

لن أنسى رؤية آدم ملطخًا بالدماء يبكي مذهولًا ودموعه تختلط بدماء على وجهه في مشهد عجيب، لن أنسى رؤيته يجري لاهثًا مذعورًا مع صديقه حسن السعدني فارَّين من باب الفيلا وقد وقف شعر رأسيهما من الخوف عند رؤية الثعبان الأبيض، عندها رأيت فيهما ابني محمد وقد استبد الخوف به ذات يوم عند رؤيته نفس الثعبان الأبيض منذ سنوات لكنه لم ينجُ كما نجوَا.

بالطبع أعلم مَن بالداخل، وأعلم من هو الثعبان، لا بد أنه هو، ومَن غيره يستطيع أن يفعل كل ذلك؟ سامحك الله أو لعنك بما ورطتني فيه يا ابن «السعدني»، كُنت أعلم علم اليقين أن ما بدأ لن ينتهي أبدًا، ظل خامدًا لأعوام ظننت فيها أنني مرتاح البال، لكن في أعماقي علمت أن ما اشتركت يومًا في عمله سيأتي يومًا أتحمل عواقبه.

هذا البيت العتيق خدم فيه جدي لأبي، كان يحب الجد الأكبر لعائلة «الخولي» حُبًا كبيرًا، كان الجد تقيًا وورعًا، كان يملك



الكثير من خدام الجن المسلمين، «مخاوي» كما اشتهر بين أهل البلد، لكنه لم يؤذِ أحدًا قط، كان يستخدم الجن في فك الأذى أحيانًا، وأحيانًا أخرى يُنكر أي علاقة له بهذا العالم. هذا ما تردد على مر سنوات في عائلتي البسيطة، والتي تخشى مجرد الحديث إذا ما تعلق الأمر بالعوالم الأخرى.

كبرت وتوارثت الخدمة والحراسة في الفيلا عن أبي الذي توارثها عن أبيه، لم أكمل تعليمي قهرًا وفقرًا رغم قدراتي، كنت أحيانًا أدخل الفيلا لأذاكر في أوقات مختلفة أثناء غياب أصحابها، فأجد تحذير أبي من البقاء وحيدًا في الفيلا خاصة في الليل، كان هذا كافيًا لإيقاظ أسئلة في عقلي، تغاضيت عنها لسنوات لتمضي الحياة في هدوء، مات والدي ثم لحقت أمي بأبي رحمهما الله، ورزقنا الله وزوجتي طفلنا الأول «محمد» البكري، كانت فرحتي كبيرة يوم مولده.

كان والد آدم يعيش في الإمارات ولا يأتي مُطلقًا، لكنه عندما تزوج بدأ يزور الفيلا زيارات سنوية قصيرة، لم يكن يشكو حدوث أي شيء غير طبيعي، مرت سنوات في هدوء زائف تغاضيت فيها عما أراه وأسمعه في الفيلا ليلًا، وسط خوف زوجتي في بادئ الأمر ثم اعتيادها لما يحدث، فقط أرادتني أن أبتعد عن هذا كله لتربية ابننا وتنمية معيشتنا، لكن فضولي كان



عدوي الأول، أخذت أراقب ما يحدث كل ليلة، تُشعل إضاءة خافتة كل ليلة بعد مُنتصف الليل، خيالات تروح وتجيء في حرية، صوت ضحكات يأتينا أحيانًا من الشرفات، كان أهل البلدة يقولون إنها روح الحاج «الخولي» الكبير، لكنني عندما بدأت أسأل وأبحث كثيرًا في سبيل المعرفة، اكتشفت أنها لم تكن كذلك، كُنت ساذجًا وضعيفًا، تصورت أنني قادر على مواجهة أي شيء، لم أكن مؤهلًا حينها، لم أكن كوالدي مُحافظًا على صلتي بالله، ومع ذلك أبحرت في علوم السحر عبر كُتب جلبتها من تاجر ملعون بالقاهرة، قرأتها بعناية وتعلمت منها كيف السبيل إلى التحكم بساكن القبو السفلي عن طريق كتابة بعض طلاسم هذه الكتب الملعونة على جدران الفيلا، لكن كان الموضوع دون نتيجة ولم يتغير شيء وظننت أن موضوع طلاسم الكتب كذبة ولم أكن أفهم أي شيء.

كان يوم ميلاد محمد الخامس قد اقترب، أشرت على أمه التي أوشكت أن تلد ابننا الثاني أن نقيم له عيد ميلاد كالأكابر بالفيلا له ولأصدقائه، لم ترتَحْ نفسها لأنها تهاب المكان بالداخل، لكنني أصررت تلبيةً لطلب صغيري ذات مرة فقد كان شديد التعلق بي، لا يتركني في مجلس أو عمل، حتى إنه كان ينام مُلتصقًا بي.

ولأنني أثرثر هنا وهناك فقد وصلت أخباري كاملة لعائلة



«السعدني»: أرسل «علي السعدني» في طلبي لقيلته ففعلت، وكانت علاقتي بهم سطحية، قابلني في ود غير مُبرر، جلسنا معًا نحتسي الشاي ونتحدث عن أحوال البلد، ثم اعتدل في جلسته وألقى ببضعة آلاف من الجنيهات أمامي وابتسم دون تعليق، زاغ بصري تجاه النقود، نظرت إليه وابتسمت، تمنيت أن يكون المبلغ لي لكن ما المقابل؟ سألته وابتسامتي ما زالت تنير وجهي:

- إيه الفلوس دي يا بيه؟

- دي علشان عيد ميلاد محمد.. مش انت هتعمله في الفيلا برضه؟

ارتبكت وجاء صوتي مُتذبذبًا:

- ده طبعًا بعد ما أستأذن أصحاب الفيلا..

ضحك الرجل ضحكة أذابتني خجلًا من كذبي عليه واسترسل:

- خلاص.. اعتبرهم حلاوة ولادة حسن ابني..

- ربنا يبارك فيه ويحفظه يا بيه.

ترددت في أخذ المبلغ لكن عينيَّ كادتا أن تأخذاه نيابة عن يدي فقال الرجل:

- مد إيدك خد الفلوس يا محمد.

أخذت المبلغ على الفور ونظرت إليه لا أصدق أنني أحمل



كل هذه النقود، والأهم أنها ملكي، نظر إلي الرجل في ثبات وتغيرت نبرة صوته فأصبحت جدية وقال في هدوء:

- دلوقتي نعرف نتكلم، اسمحتي للآخر يا محمد وفتح مخك، اللي هطلبه منك مش صعب عليك، بالعكس ده انت هتعملي خدمة مش هنسالك جيلها وكمان هتاخد حقها.

نظرت إليه مُنتشيًا وقد عقدت العزم على فعل أي شيء يطلبه وقُلت:

- طلباتك أوامر يا علي بيه.

- جميل.. الفيلا اللي انت قاعد فيها، فيها شيء يخصني، قبو الفيلا تحته أثر يخص عيلة السعدني مش الخولي، حاولت أشترى من إبراهيم الفيلا لكن منشف دماغه وفرحان بيها ويقولي فيلا أثرية وكلام فارغ، كمان في موضوع أصعب..

- خير إن شاء الله؟

- يعني.. إنت عارف الحاجات اللي بتحصل في الفيلا كل يوم؟

لم أشأ أن أخلط الأمور هنا وأردت أن أركز على شيء بعينه، فسألته:

- الناس بتهول يا بيه، في حاجات غريبة آه، لكن مش بالصورة اللي بتتنقل بين الناس.



نظر إلى الرجل بمكر واستراح في جلسته وقال بنبرة مُختلفة:

- لما الناس بتهول يا محمد.. جبت ليه كُتُب سحر وقاعد تقليها ليل نهار؟

ارتبكت ولم أدرِ ماذا أقول لكنني لم أدرك وقتها أنه ولا بد يبعث من يُراقبني منذ فترة، وقف وأخذ يروح ويجيء في الغرفة بعد أن أشعل سيجارة وأكمل حديثه:

- شوف يا محمد، أنا مبحبش اللف والدوران، أنا وانت وأهل البلد عارفين إن سُكنة الفيلا صعبة، وانت وارث الحراسة فيها أبًا عن جد وعارف تتعامل فيها كويس، محدش غريب قرب من الفيلا إلا واتأذى.. صح؟

أردفت في صدق:

- صح..

- جميل جدًا، أنا هقولك اللي أعرفه كمان وأنا عارف إنك عارف، الحاج «الخولي» الكبير كان راجل له كرامات كتير.. إنت فاهمني كويس طبعًا مش محتاج أوضح.

ابتلعت ريقي بصعوبة وأردفت:

- الله يرحمه.

- الموضوع إنه لما جدي اكتشف موضوع الأثر اللي تحت الفيلا رجع للخولي علشان يرجعهوله، لكن الحاج الخولي كان



مُقتنع إنه طالما اشترى الأرض باللي فيها يبقى أي حاجة فيها بتاعته، لكن في الحقيقة الأثر يخص عيلتنا، وفضلت المُشكلة على كده.

- طيب ليه الحاج الخولي يعمل كده وهو كان معروف عنه إنه رجل تقي؟!

- لأن تجارة الآثار من وجهة نظره حرام وكلام فارغ، الأثر ده لو اتباع هيجيب فلوس تأمن مستقبل عيالنا وعيالهم ويمكن البلد بحالها.. وانت أولنا.. فاهمني طبعًا..

اعتدلت في جلسي وأردت أن أثبت وجودي، الآن فهمت اللعبة جيدًا، وهذا المبلغ يجب أن يكون مجرد عقد توقيع شفهي، نظرت إليه وقد تملك الغرور مني وأردفت في ثقة:

- يا بيه.. إنت عاوز نجيب الأثر من غير ما تشتري الفيلا؟

جلس الرجل أمامي وقد ابتسم وقال بصوت فرح:

- الله ينور عليييييك.. ساعتها الأمور هتبقى سهلة، وخليهم يشبعوا بالفيلا براحتهم، همتك بقى معايا واعتبر المبلغ ده تحت الحساب يا محمد.

ضحكت بصوت عالٍ لأول مرة أمامه وأردفت في ثقة:

- يا بيه المبلغ ده ميكفيش تتفسح بيه في فرنسا أسبوع واحد زي ما بتعمل، أنا عاوز نسبة من الحتة المدفونة لما تتباع، والعربون



ده يزيد حبتين.

اعتدل الرجل في جلسته واختفت ابتسامته تمامًا وقام من مكانه مُتجهًا إلى مكتبه وهو يقول:

- غريبة.. قالولي عليك أهبل يا محمد!

- يا بيه انت عارف اللي انا هبقى مضطر أعمله عشان اطلع حتة الأثر دي ممكن يبقى إيه؟

- لا مش عارف ومش عاوز أعرف.. اللي يخصني في الليلة دي الأثر.. غير كده ما يهمنيش وعرقك هتاخده.. لكن مفيش نسب يا حبيبي، متنساش إنت مين وأنا ممكن أعمل فيك إيه.. لكن المبلغ اللي معاك هزوده وهديلك أضعاف لما تسهل لنا الأمور بعد كده.

أعدت جلستي إلى سابق عهدها وقد خفت من توعده لي، أعلم حجمي جيدًا بالنسبة لرجل في مركزه وعلاقاته، لا بد أن أفكر بعقل أكثر الآن حتى لا أخسر المصلحة أو أوذي نفسي وعائلتي، عادت نبرة صوتي مرة أخرى مسكينة وقلت:

- أنا تحت أمرك يا بيه، أنا مقدرش أرفض لك طلب، لكن برضه نفسي أسيب حاجة للعيال من بعدي.

- متخافش هتسيب، وهتسيب كتير.. ها.. إخلص قلت إيه؟



- قلت لا إله إلا الله..

- محمد رسول الله.. يوم عيد ميلاد محمد ابنك تبدأ. على بركة الله.

وكانت الكارثة.. دفعت ثمن جهلي أضعافًا في ذلك اليوم. كانت «أم محمد» تنظف الغرف كعادتها كل أسبوع، وبدأت أزين بهو الفيلا بعد أن استأذنت إبراهيم الخولي عبر الهاتف منعًا للقيل والقال فوافق دون مناقشة، رُبما كان مُنشغلًا باستقبال ابنه «آدم» وقد وُلد قبل أيام قليلة في الإمارات.

أصرت زوجتي أن نحتفل أثناء النهار وننهي الحفلة قبل أذان المغرب، أعددت كل شيء وتخيلنا لبضع ساعات أننا أصحاب الفيلا والأرض، كل هذا الترف، كان إحساسًا لا يُوصف، لا شك أن المال يعطي صاحبه الكثير من القوة.

بعد انتهاء حفله عيد الميلاد على خير قُبيل المغرب، انصرف الأولاد واحدًا تلو الآخر، وعادت الحقيقة مرة أخرى فأخذت أم محمد تنظف الفيلا وتعيد الأشياء إلى مكانها، وكأنها قد أفاقت من الحلم، تمنيت بشدة لو أملك ما يجعلنا نرتاح في شيخوختنا، قررت أن أنفذ وعدي الذي سوف يترتب عليه تغيير حياتي.

بعد أن تأكدت من مُغادرة الجميع وبعد صلاة العشاء. أخذت أحد الكتب التي اشتريتها وأخذت أكتب طلسمًا معروفًا



لرواد العالم السفلي لطرد الجن الحارس من البيت، وطلسمًا آخر لحرق الجن، أخذت أكتب على الحوائط كلها وأهتم بالأركان، وأثناء انشغالي دخلت علي زوجتي فاكتشفت أن باب الفيلا كان مفتوحًا، نهرتها لتخرج وقد لاح عليها القلق مما رأته، لكنني أخرجتها بإصرار وأخذت أكمل ما بدأته، حوائط الفيلا كثيرة وهذا ما يقوله الكتاب، كتابة الطلسم على كل حوائط المكان في أركانه.

بعد قليل سمعت صوت زوجتي تقرع الباب في عنف وتنادي، لم أهتم، لكنني سمعت صوت محمد يصرخ بشدة، توقفت عما أكتبه في هلع، للحظات لم أعرف هل أجيب زوجتي أم أبحث عن ابني، كان باب الفيلا هو الأقرب ففتحته فرأيتها قلقة تسألني في ذعر:

- مشفتش محمد؟

في هذه اللحظة صرخ المسكين مرة أخرى يناديني، بات من الواضح أن الصوت يأتي من الدور العلوي، نظرنا إلى بعضنا في هلع وهرولنا إلى الدور العلوي، الغرف كلها مغلقة وصوت ابني المسكين يصرخ بلا توقف، أخذنا نفتح الغرف والحمام فتُفتحت لنجدها خاوية، إلا غرفة الضيوف لم تفتح أبدًا، كان صوتًا مخيفًا يحدثني من خلف الباب وصغيري يصرخ في استغاثة:



- اللي بتعمله ده هيكلفك حياة ابنك.. إنت اللي اخترت.

هنا رأيت حجمي الحقيقي في الحياة، أردفت راجيًا:

- أنا غلطان.. هسمح كل اللي كتبته، أوعدك.. حالًا همسحه بس سيب ابني.. «محمد» ملوش ذنب.

صراخ الولد لم يتوقف ولم أتوقف عن الرجاء أو تتوقف زوجتي عن النحيب، وفي إحدى محاولاتنا فُتح الباب لأرى ابني البكري يوم ميلاده يحتضر مُمسكًا بصدره ينظر إلي في استسلام وأرى ثعبانًا أبيض كبيرًا واقفًا بجانبه ينظر إلي ثم يزحف نحو الشرفة إلى الخارج.

أسرعنا إلى الصغير وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة، تحتضنه أمه وتنتحب واعتصر قلبي ألمًا شديدًا، سامحني الله أو لعنني بما فعلت بك يا ابني، لم أنوِ إلا الخير لك، لم أكن أعلم أنه شر مستطير.

حاولنا كثيرًا تخطي الألم لكنه لم يزُل، ضاع ابني مني وسيطر علينا حزن كبير لم يخرجنا من بعضه إلا أيام جاء زوجتي المخاض، وجاء مروان، كانت زوجتي كريمة معي بأن سامحتني، مرت الأيام وأنجبنا توءمين بعد مروان وعشنا في هدوء لا تقرب الفيلا ليلًا أبدًا، فقط طليت الفيلا كلها على نفقتي بهذه النقود الحرام التي أخذتها من عائلة السعدني، آملًا في رفاهية لم تكن إلا نارًا تأكل قلبي كل ليلة.



(١٦)

«عبد الله»

يخافنا بنو الإنسان ولا يعرفون عنا أي شيء، نشأت بين الجن المسلم المؤمن العابد، كُنا قبيلة كبيرة قوية ومؤمنة، نُساعد الضعيف ونأمر بالمعروف بين الأجناس، دون الالتفات إلى ديانتهم أو فقرهم كما يفعل أبناء آدم، تعارفنا بقليل من البشر أمثالنا ممن يستخدمون قوتهم في الحق، يخافون الظلم والخصومة يوم الدين، لأنهم أحبوا الله وكانت هذه هي الخطيئة الكبرى!

في يوم مشئوم كُنت أراقب أبي كعادتي، كان يومًا مُختلفًا بشكل يصعب وصفه، كان قلقًا يستعد لملاقاة العدو قبلها بساعات، لكن غير مُقتنع يُناقش جدي في العدول عن الحرب، في حين يرفض الأخير فيرضخ أبي لأوامره في نهاية الأمر على مضض، يومها أحس بمراقبتي له فناداني دون مُداعبة كعادته:

- «عبد الله».. تعالَ عايزك..

- نعم..

- النهارده أنا واخواتك الكبار وجدك ويمكن القبيلة كلها



طالعين مهمة كبيرة، إنت عارف ده؟

- سمعت أمي بتحكي عن «الملكة زينب» من بني الإنس وطلبها من جدي مُساعدة، وإنها عايزة تروح معاكم، لكن مش فاهم الحرب دي ليه؟

- مش كل الجن صالح يا عبدالله، زي الإنس بالظبط، في منهم شياطين بتحارب الخير في كل مكان على الأرض، إحنا بنحارب الشر وبنأيد الخير، كل العيلة هتكون معانا بما فيهم أنا ووالدتك لأنها مُصرة.

سادت لحظات صمت وأنا أحاول أن أفهم ما السبب لكنه أردف:

- المهم مش عايزك تكون هنا ولا في مكان بنروحه ولا تكون بأرض المعركة، حاول تختفي في أي مكان بعيد.

- ليه ما أروحش مع اخواتي.. أنا مش صغير وأقدر أحارب؟

- اسمعني كويس ونفذ اللي هقولهولك.

- وانت هتروح فين وجدي واخواتي؟

- أنا بقول لو ما رجعناش.. إن شاء الله نرجع.

رُبما أحس بالخديعة وأراد أن يحمي ابنه الصغير، فقد كُنت طفلًا لا يقوى على مجابهة شيء، لم أنفذ نصف وصيته الأولى.



وذهبت وراءهم لأرى ماذا سيحدث وأطمئن عليهم، لم أكن أعلم معنى كلمة «حرب».. كما لم أدرك معنى كلمة «سلام»، ويا ليتني ما ذهبت.

جيوش وقبائل كثيرة قوية، تتقاتل مع بعضها البعض فقط تنفيذًا لأمر ملوكها، منهم من يقتل تلذذًا بالقتل، ومنهم من يطيع دون فهم، والنتيجة كثير من القتلى، راقبت ما يحدث من بعيد إلى أن رأيت جدي يُلقى جثة لا تتحرك، وأبي وراءه، وقتها لم أدرك الوقت لكنه مر كالدهر فوق رأسي، ثم رأيت أبي يهوي من أعلى دابته ويسقط جثة، تلاقت أعيننا وأنا أصرخ دون فائدة، ثم رأيت أصابعه تتحرك وتأمرني بالمغادرة قبل أن يحتضر مباشرة، هالني ما رأيت وتأملت وجهه لآخر مرة دون وداع، نظرت إلى عينيه فرأيت الخير يموت لينتصر القُبح في العالم، أهذا ما أردته؟ انتصر الظلم والكراهية والشر، ذهبت براءتي بغير رجعة، ثم نفذت النصف الثاني من وصيته، أعطيته ظهري وذهبت بكل ما أُوتيت من قوة دون إدراك، إرضاء لأبي وطاعة له، كُنت أنظر ورائي بين الحين والآخر فأرى قبيلتنا أوشكت على الفناء والأعداد في تناقص، فأدركت أن أمي وإخوتي وكل عائلتي قد فنوا أو على وشك الفناء.

وكنت أنا الصغير الباقي ألملم شتات أمري وأتحرك من



بين كل الموتى المخدوعين إلى مصيري المجهول، رحلت من أرضي غير راغب، فقد كُنت آمل أن أعيش هناك لآخذ ثأر أبي وعائلتي، لكنهم لن يتركوني، لم أفهم لماذا أوصاني قبل أن يذهب للحرب، لكنني فهمت بعد ذلك أنه كان يعلم أنه اليوم الأخير الذي سأراه فيه، أخذت عهدًا على نفسي ألا أحيا على دينك لتتركني كما تركتهم، بل أحيا وأموت على دين ما أراه وما ألمسه، فلا أعترف بمعجزات ولا أؤمن إلا بما يحدث أمامي.

ثم كان اختلاطي بكثير من الإنس فشهدت غدرهم على مدار عمر طويل جدًّا، كثير من الشر، لا يوجد فرق بين شياطين الإنس أو الجن كما يزعم بنو آدم، يأخذون من وجودنا حُجة لفعل الشرور، لم أستوعب كل هذا التناقض، كيف لصديق أن يغدر بعد أمان؟ حروب وخيانة وسفك دماء وكثير من المكائد والشرور والأحقاد، دائمًا ما أندهش من قسوة البشر بعضهم على بعض، وما كان لنا عليهم من سُلطان، هذا ما يقوله الكتاب إن كانوا مؤمنين، نوسوس لهم فيتبعوننا، ثم يتفوقون علينا بألاعيبهم.

لذلك يا بني أنت لا تُقدر خطر ما أنت مُقدم عليه، أخاف عليك من الدنيا مرة، وأخاف عليك من صداقة الإنس ألف مرة، فلم يُقتل جدي ووالدي وجميع أبنائه إلا بخيانة أصدقائه،



لم يجد أعداؤه السحرة من الجن له مدخلًا، فاتحدوا مع بعض أعدائه من الإنس لمساعدتهم على محو قبيلتنا بأكملها، ومع كوننا نفر كثير وقوي، لكن تمت المؤامرة بنجاح وقُضي الأمر، هكذا بمنتهى البساطة.

لهذا كله أقسمت على قلبي ألا يحب مخلوقًا، لكنه خانني وأحب «سارة»، لم أكذب عليها أبدًا، صارحتها، لم أجد منها مقاومة فكانت فرحتي بها كبيرة وعشرتي معها مريحة، نعم تزوجتها وهي تعتنق الإسلام بالوراثة مثلي لكنها لم تكن مؤمنة! بل إنني سعيت في إقناعها بأن الدين ما هو إلا قصص مغلوطة لا فائدة منها، واعتقدت أنني نجحت حينها على نحو كبير، ماذا حدث لها لتتغير هكذا؟ نعم رأيتها وهي تستمع إلى القرآن ونهرتها، راقبتها وعلمت أنها تتردد على بيوت العبادة، ثم رأيتها تتلو القرآن كل ليلة سرًّا، كُنت منشغلًا بأعمال أخرى وقتها، لكنني لم أتخيل أن يؤثر فيها هكذا، لماذا تركتني وحدي في منتصف الطريق؟

الآن تأخذها مني بإيمانها، الآن تكفر هي بالحقيقة وتجري وراء سراب كما فعلت قبيلتي، خدعها الإيمان كما خدعهم، الآن يقف ابني الوحيد في وجهي مُدافعًا عن إنسيّ! ألا يكفي ما أُخذ مني؟ ألم تُغنِ عائلتي كاملة عن أخذ زوجتي وابني؟



نعم لم أنسَ ما حدث وأنا طفل أناجي الله، أتضرع لينقذ عشيرتي، لم آكن أبالي بالحياة أو بالمات، كُنت أريدهم أحياء بجانبي، ماذا فعلت عائلتي لتُباد بأكملها، ألم يطيعوا أوامر الله؟ ألم يوحدوه ويقدسوه؟ ألم يتوكلوا عليه حق الاتكال؟ بل إنهم سعوا في كثير من الخير ابتغاء وجهه! فما الذي حدث لهم في النهاية؟ واحد تلو الآخر مات أمام عيني وأنا بين كل ميت أنظر إلى السماء وأدعو بكل الخير وباسم العائلة التي وهبت حياتها بأن تنجي ما تبقى وأن تكتفي بمن أخذته، كانت إبادة جماعية تحت سماء الله.

لكنني ومع كل ما لاقيته بحثت في الأرض فلم أجد إلا المخابيل والدراويش والضعفاء يؤمنون به وبمعجزاته، مع ذلك بحثت عن العدل في الأرض كل يوم فلم أجد ما يشفي غليلي، بحثت لعلي أستعيد نظرة اليقين في عيون جدي وأبي وهما يحكيان عن حلاوة الإيمان، لكني رأيت الأقوياء يذلون المُستضعفين،رأيت الظلم والجهل والفقر والمرض والحروب وقد اختفى الخير على مر العصور، تساءلت إذا كانت كل رُسلك قد دعت للخير فلماذا خلقت الشرور من الأساس؟

حتى تعبت من كل الأسئلة ولم أعد أبالي بما يحدث خارج جدراني الأربعة، لم أعد أبالي إلا بزوجتي وابني، فهما كل ما تبقى



لي، لكنك تأخذهما الآن رغمًا عني إلى دائرة الوهم، إلى السراب الذي يحسبونه نورًا، هل تنتقم مني من أجل بقائي حيًا؟ هل كُنت تنوي أخذي أيضًا؟ هل كنا نعيش وأجدادنا وهمًا كبيرًا اسمه الإيمان؟

لكنني لن أقف مكتوف الأيدي، لن أقف صامتًا، لن يأخذهما شيء مني، سوف أتحول إلى كرة من النار تأكل كل ما يقابلها دونهم.

أما محمد، هذا الطفل الإنسي الذي صرعته دون قصد، فأنا غير آسف عليه، ولا أحمل في ضميري شفقة ولا تأنيب ضمير له أو لعائلته الفقيرة، خيانة والده كانت السبب، والد هذا الخفير قد ورث مهنته عن والده الذي كان يعلم بسكني في البيت، والحق لم يضايقني يومًا أو يتجرأ علي، لم يكن ليتدخل في أموري الخاصة، أو يطلب مني طلبًا، وهكذا عاش كل منا في سلام من الأذى، لكن ابنه «أبو محمد» ملأ الجشع نفسه، يبيع كل شيء من أجل المال، لا يعلم أن المال لن يرحمه مني إذا ما اقترب للأذى أو حتى المُضايقة، كان في مُنتهى الغباء عندما حاول مُساعدة عائلة السعدني في الحصول على التعويذة المدفونة في القبو وإخراجي منه، ألا يعلم أنني مُسخر لحراسته؟

قاده غباؤه إلى إزعاجي بكتابة تلك الطلاسم على جدران



البيت، وهو يعلم بوجودي علم اليقين وقد أوصاه والده بي خيرًا فلم يفعل. حذرته حين أقدم على كتابتها في بلاهة، تحدثت بصراحة في أذنه «لو كملت هأذيك».. رددت الجملة أكثر من مرة، كان يتلفت حوله ويُسرع ليُكمل ما بدأه، استمر في كتابته وقراءة هذه الطلاسم التي كان من الممكن أن تقضي علي ليلتها، كان لابد أن أدفع الضرر عن نفسي، كان ابنه يلهو في غرفتي بالدور العلوي، فرأيت أنه مصدر إلهاء وانتقام، ظهرت له في هيئة ثعبان يتلوى، فقط كي أخوفه ليس إلا، لكنني توجعت وصرخت أمامه إثر عمل الطلاسم التي كاد أبوه ينتهي منها بالأسفل، انتفض الفتى من مكانه وقد رمى ما يلعب به، فظهرت له صورتي الحقيقية رغمًا عني فارتمى على الأرض من شدة الفزع، صرخ حتى توقف قلبه فجأة ولم أمسسه قط، كان أمرًا قاسيًا لكنني تناسيت الأمر كله كأنه لم يحدث.. لم تكن نيتي الأذى ولا خطيئتي كتابة الطلاسم، بل والده، فليدفع هو ثمن نجاسته. أما أنا فلن أندم أبدًا على ما حدث يومها.. ما يشغلني حاليًّا هو كيف أبعد ولدي «نوح» عن ذلك الإنسي «آدم»..

***



(١٧)

«سارة»

وقفت أستمع إلى صوت «عبد الله» يصرخ كالمجنون كمن يتحدث إلى أحد في الغرفة وكُنت أعلم أنه وحيد، جُن جنونه بانغماسي في الدين ودفاع ابننا نوح عن آدم وعن إيمانه، لا أدري ماذا أفعل، كُنت دائمًا شديدة الانسياق له؛ أطيع أوامره دون مُجادلة أو تفكير، أحببته أكثر من عشيرتي، بل أحببته أكثر من نفسي، ولأنني مازلت أحبه فإني أخشى عليه غضب الجبار، أخاف عليه نار جهنم، فهو بغضبه قد نسي رحمة الرحمن ونعمه التي لا تُعد ولا تحصى، وأنا أؤمن أن تأخير عقاب إلحاده لسبب؛ إما لُيكثر من أخطائه فيُخلد في النار، وإما لموعظة أو حكمة لا أعلمها.

في زمان سحيق تورط جد «عبدالله» الأكبر في حرب بدأت كأنها قبلية، وكانت مكيدة من أعدائه وأعداء الدين، اتحدوا عليه وتمكنوا من إيقاعه، ودفع ثمن شهامته وشجاعته من حياته وحياة عائلته كلها، وأولهم «مُختار» والد «عبدالله»، إلا من نجا بنفسه وهرب وكانوا نفرًا قليلًا، كان «عبدالله» صغيرًا فلم ينس مشاهد القتل والحرق والذبح لقبيلته، فلم يأمن بعدها أصابع



يديه، وكان هذا سببًا في إلحاده، كان واثقًا أن الله سينجيهم وسينصرهم، سينتصر الحق على الباطل كما كان يعلمه والده، رُبما يموت البعض منهم في سبيل النصر، لكنه لم يتخيل أن تُقتل عائلته بأكملها، حينها بكى وردد كثيرًا: «لقد خذلني الله»، ولم يذكره من بعدها مرة أخرى، ثم ترك أرض الشام كُلها وجاء إلى مصر واستقر في باسوس ولم يزر موطنه مرة ثانية إلى يومنا هذا، هذا ما قصه علي دون تفاصيل، لكنني أؤمن أنه سيرجع يومًا ما إلى طريق الله، طريق أجداده وأبيه، فالأصل دائمًا فياض على ذريته وأثره موجود. حاولت كثيرًا معه ولم أقاوم غضبه، بل كُنت سأنساق إلى طريقه بدلًا من أن أجلبه إلى الطريق الصحيح.

الآن لا أستطيع أن أسمع ما يقوله.. أشفق عليه أشد الشفقة، مع ذلك حان الوقت لمناقشته مهما كلفني الأمر، مهما تطلب من جرأة لأقف أمامه للمرة الأولى في حياتي وأعترض، لأستقبل ريحًا من الغضب تكفي لصرعي، لكنني على أتم الاستعداد لذلك من أجله، فمن أجل إنقاذه أفعل أي شيء وسوف أفعل.. كُن معي يا لطيف.

استجمعت قواي، أغمضت عيني قليلًا واستحضرت عظمة الله في قلبي، توكلت عليه وذهبت إليه.. كان واقفًا أمام نافذة الغرفة يتأمل ما وراءها وفي. بات واضحًا أن غضبه قد خمد



كثيرًا، وقفت وراءه لثوان معدودة فأحس بوجودي وتحدث بنبرة مُوبِّخة:

- عايزة إيه؟

- عايزة أتكلم معاك.

- مش عايز أتكلم في حاجة.

أردفت في صوت مرتعش:

- الأحسن إننا نتكلم.. لازم أقول اللي كان لازم أقوله من وقت ما اتجوزنا..

لم يرد.. لكنني أحسست أن هذا الوضع هو الأفضل لأتحدث بحرية دون أن أخشاه فأتراجع عن بعض مما بداخلي، فلعبد الله هيبة تجعل كل من يقف أمامه يرتجف، جف حلقي وانعقد لساني لكنني تذكرت الله في قلبي واستقويت به:

- أنا عارفة إنك ناقم على الخالق، إنت نسيت كل حاجة يا عبدالله، نسيت أصلك ونسيت نعم ربنا عليك.

ضحك عبدالله ضحكة عالية تنم عن غيظ وغلظة في قلبه لكنني استرسلت في شجاعة:

- إنت وأنا والإنس وكل المخلوقات مجرد مخلوقات في الكون، مهما بلغت قوتنا فهي ضعيفة، قوتنا مُستمدة منه وبإرادته، ولو شاء سلبها مننا برضه.



- آه طبعًا.. ما هو إحنا لعبة.

- ربنا قال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[1].

العبادة لمصلحتنا وهو الغني عنها، العبادة مش شعائر بنعملها ونخلص منها ونقول خلاص إحنا عملنا اللي علينا، العبادة يقين بجمال الله، يقين إن كل اللي بيحصل لنا بدون إرادة خير وأحسن حال ممكن نكون عليه.

التفت إلى «عبدالله» وقد لاح على وجهه كثير من السخرية وقال:

- أحسن حال إني أعيش يتيم يربيني بني آدم وأهلي كلهم يموتوا؟ حظي بس إنه كان كويس مش زي اللي بشوفهم، هو ده أحسن حال بالنسبة لك؟

- كان مُمكن تعيش بين أهلك وأنتم أسرى لشياطين ما تعرفش ربنا، ما تعرفش الرحمة، ساعتها أهلك كانوا هيموتوا في اليوم ألف مرة من الذل، لكن أهلك ماتوا بعزة وكرامة، ماتوا في سبيل الله ونيتهم خير، مُتخيل أجرهم عند ربنا إيه؟ إحنا مكلفين يا عبدالله، ربنا خلقنا كلنا أحرار وهنتحاسب عملنا بالحرية إيه، وكل واحد هياخد ثواب وعقاب على قد عمله، ليه مشفتش رحمة ربنا في إنك ما اتقتلتش؟ ليه ما شفتش رحمة ربنا في إنك لقيت مأوى؟ إنت مش شايف كتير من قبائل الجن حوالينا عايشين

---

(1) [الذاريات: ٥٦].



إزاي؟ ليه مشفتش نعمة ربنا في قوتك؟ إننا اتجوزنا وعندنا ابن؟ ليه مفكرتش لحظة إنه نجاك علشان تنتقم ليهم وتكمل مسيرتهم في الحق، علشان ترفع ذكراهم، إنت بنفسك قلتلي إنك لما كبرت فهمت إنك كان ممكن جدًّا تبقى أسير طول عمرك عندهم، إنت اللي خذلت أهلك يا عبدالله مش ربنا.

نظر إلي نظرة غضب لم أرها منه طيلة حياتي، مرت لحظات صمت وكنت أرتجف من الداخل أمامه، فاستعنت بالله وأكملت:

- أهلك ماتوا في وقت أجلهم، كله مُقدر ومكتوب، إحنا لا نملك تأخير أو تعجيل في الموت.

- وفّري كل كلامك ده يا سارة، أنا مبقتش مُعترف باللي بتقوليه ده، إيه معنى «وما تشاءون إلا أن يشاء الله»؟ كفاية أوهام بقى.

- الحرية اللي بقصدها لا تعلو على المشيئة الإلهية، ربنا ادّانا الحرية في إننا نكون أخيار أو أشرار، نئذي أو نمنع الأذى، دي حرية نسبية مش حرية مطلقة، إحنا في الآخر مخلوقات، ومع ذلك بنسمع عن الرسل الأولياء وأصحاب الكرامات اللي بتنكشف لهم حاجات ميعرفهاش جن ولا إنس، دي حرية اكتسبوها بالتقرب والاجتهاد فأكرمهم من علمه، إنت ناسي إن أجدادنا كانوا مُسخرين؟ إنت في الآخر بترتاح للعمل الطيب وقلبك بيتطمّن، أو بتشعر بالندم بعد أي عمل غلط، الفطرة بتوجهك



وكل يوم في حياتنا بنقف قدام اختيارات، واحتمالات ومقارنات وإحنا في الآخر بنختار، دي حرية، كان ربنا قادر يجبرنا كلنا جن وإنس على طاعته..

ابتسم «عبدالله» في سخرية وقال في ثقة:

- اقعدي يا سارة وحاولي تقنعيني. مش عارف إزاي سايبك تهذي كل ده!

جلست وقد زفرت نفسًا عميقًا وأحسست أن خوفي بدأ في الزوال وأكملت:

- القضاء والقدر، ربنا سبحانه وتعالى بيقضي وبيقدّر على المخلوق من جنس نيته، ويشاء له من جنس مشيئته، ويُريد له من جنس إرادته، مفيش تناقض خالص.

- يعني إيه الكلام ده؟

- البني آدمين شاغلين نفسهم بحكاية إحنا مسيرين ولا مخيرين؟

- فعلًا لكن مكنتش بهتم أعرف.

- كلنا مسيرين ومخيرين في نفس الوقت، ببساطة كده تسيير الله في تخيير العبد، يعني ربنا بيسيرنا على حسب هوانا ونيتنا إحنا وقال في كتابه: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴾[1].

---

(١) [الشورى: ٢٠].



- عمرك سألتي نفسك يا سارة ليه ربنا خلق الشر والمرض والفقر والحروب؟ ليه سايبهم وسايبنا جن وإنس نعاني منهم؟

- حاجات كتير سألت نفسي عنها، وده اللي خلاني أدور وأفهم أو أحاول ع الأقل، سلوك المخلوقات ممكن يكرَّهك في الحياة وفي العبادة، لكن لو عرفت إن الشر والمرض والحروب موجودين علشان إحنا على الأرض مش في الجنة، والأرض دار اختبار وجهاد، اللي يفوز هيرتاح، ولو كان ربنا خلق الأرض جنة فإيه لزوم الاختبار؟ الثواب والعقاب والجنة والنار؟ وليه جت رُسل كتير قبل كده؟

توقفت عن الكلام وأحسست أن «عبدالله» بدأ يستمع إلي للمرة الأولى فقلت أخيرًا:

- إحنا محتاجين نراجع نفسنا في حاجات كتير يا عبدالله، عبادة ربنا وصلتنا بيه لمصلحتنا إحنا، ربنا غني عن العالمين، وشوف رحمته مع عصيانك، شوف إزاي بيمهلك الوقت للرجوع، لكن متنساش ربنا يُمهل ولا يُهمل، أنا بحبك وأحب لك الخير وأحب أشوفك على طريقه، أرجوك فكر في كل اللي قُلناه وعيد نظر تاني.

* * *



(١٨)

«نوح»

هذه الليلة لم تُمَحَ من ذاكرتي، كان هذا منذ سنوات بعيدة، كان آدم وحسن ما زالا صغيرين يلعبان الكرة ليلًا في الحديقة، صوت الكرة وضحكاتهما العالية بعد مُنتصف الليل جعلا النوم أمرًا مُستحيلًا، وتذكرت أن أبي سبق أن نهرني بشدة عندما أردت اللعب معهما في إحدى المرات، لم أفهم خوفه الكبير علي ومنعي من الاختلاط بأي إنسي.

غلبني الفضول، انتظرت حتى غفا أبي وأمي، ثم نزلت لألعب معهما، كانا مُستمتعين بالمُنافسة في ضرب الكرة على الشجرة العجوز بالحديقة، وقفت أمامهما وابتسمت لكنهما لم يباليا بي، أخذت أقترب منهما للمرة الأولى في حياتي وأنظر إليهما لكنهما لم يرياني فتملكني الفضول أكثر، كانا يقفان بجانب بعضهما والشجرة الضخمة أمامهما مباشرة، أخذ آدم يضرب الكرة على الشجرة فترتد إليه فيأخذها حسن ويضربها، واستمر تبادل الأدوار بينهما إلى أن سئمت، فقررت أن أشاركهما، ووقفت



أمامهما بجانب الشجرة، ضرب حسن الكرة فأخذتها بفرحة، لكنه لم يفرح مثلي! وقف مُندهشًا ينظر إلى آدم، أخذت أُنادي عليهما وأُريهما الكرة لكنهما لم ينتبها على الإطلاق، وكأنني.. فراغ! لم أجد في الدنيا شيئًا أكثر إيلامًا من هذا الشعور، أنا غير مرئي.. أنا لا شيء.. كأنني عدم!

أخذت أراقبهما في ذهول أيضًا وأنا لا أعرف لماذا يتجاهلانني، كان حسن يبحث عن الكرة في حين دخل آدم الفيلا مُسرعًا، وقفت أمام حسن ووضعت الكرة أمام عينيه لكنه ظل يبحث عنها في الأرض! جاء آدم حاملًا مصباحًا بيده ليُنير لحسن أثناء البحث، وقفت أمام آدم ورميت الكرة أمامه، ارتعبا عندما رأياها مرة ثانية بعيدًا عن الشجرة وفي الاتجاه المُعاكس، لكنهما لم يرياني أيضًا وفرّا هاربين من الحديقة!

هنا فقط أدركت أنني ولا بد مُختلف، جلست في الحديقة وحيدًا حزينًا على اختلافي، أردت فقط أن ألعب معهما، لكن لم أفهم شيئًا، ثم فكرت في أننا نعيش معًا مع آدم وأبيه وأمه في نفس الفيلا منذ زمن، ومع ذلك أثناء زيارتهم السنوية لا نختلط أبدًا، كما أنهم لا يلقون التحية علينا أو على خدمنا، ويتجاهلون أقاربنا وضيوفنا الواردين، وأننا أيضًا لا نبالي بهم ولا بخدمهم ولا بضيوفهم، تذكرت تنبيهات أبي المستمرة بألا أختلط بهم أبدًا،



لكنني لم أدرك لماذا.. كُنت أحسبهم يروننا ولا يهتمون، لكنني ليلتها اكتشفت أنهم لا يستطيعون رؤيتنا ليلًا أو نهارًا! لكنني لم أخف منهم يومًا كما يفعل أبي، بدوا لي مُسالمين لا يحبون الأذى.

لم أستطع النوم ليلتها، بقيت حتى أدركت الصباح فصارحت أمي بما حدث وسألتها: من أنا؟ ووقتها فقط علمت أننا من عالمين مُختلفين، قالت: هم من صلصال، وأنا من مارج من نار، أنت جسد وأنا طيف، أنت إنس وأنا جن، تكويننا مُختلف، القوانين مُختلفة، وإن تشابهت التقاليد، نتشابه في أمور كثيرة، أهمها الدين والتكليف، وعلمت أن جميعنا جنًّا وإنسًا مكلفون ومسئولون أمام الله وأننا لم نُخلق إلا للعبادة، وأن مصيرنا لا يُقاس بحسابات الدنيا الزائلة، فعزمت على معرفة الشيء الكبير والمهم المشترك بيننا في الحياة بشكل أعمق، ولحسن حظي كانت أمي أيضًا تتعلم أصول الدين وتحفزني لتعلمها، لم تكن تعلم أني أنتوي هذا أيضًا.

أحببت طيبة آدم فقررت أن آخذ بيده إلى طريق الله معي فتغاضيت عن الاختلاف وركزت على التشابه.

لكن كيف ألتقي بآدم دون أن يخاف مني؟ ظللت أفكر وأدرس وأحسب كل شيء، فوجدت أن الصدفة هي أحسن اختيار لي وله، سرقت السيجارة المُتبقية معه لتكون منفذًا لي،



شيء أستطيع أن أستخدمه في التعارف حتى وإن كان لدقائق، أردت أن أظهر له وأخوض خبرة التعارف إلى بني آدم كما فعل أجدادي لأبي، لكنني لم أنتوِ الظهور في هذا اليوم الذي رآني فيه في الحديقة حيث كُنت أتمشى وأتفقد أحوالها، بل إنه بدأ بالتعارف ووفر عليّ عناء البداية، التي لم أكن لأتخيل أن تمر بهذه البساطة.

وبالرغم من أنني لم أعلمه إلا الخير أو أؤذه قط، إلا أنني أراه خائفًا مني حد الموت بعد أن علم حقيقتي، الجُهلاء حوله يظنون أن القرآن الكريم سوف يحرقني! كيف وأنا جن مُسلم؟ أصلي وأصوم وأذكر الله مثلهم! بعد تفكير قررت أن أتعامل معه بطبيعتي، فقد كُشفت كل الحقائق، أتمنى أن يطمئن قلبه ولا يضطرب، فأنا ما زلت أنا.. نوح، أنا الصديق الذي يحب صديقه، حاولت أن أفكر بعقله لأستوعب لماذا يخاف مني بهذا الشكل! وتفهمت كل ما يدور بعقله وكل القصص المُخيفة عنا على مر الأزمنة، وكيف أننا نراهم من حيث لا يروننا، له كل الحق فهو لن يُميز الجن المسلم من الشيطان في هذه السن الصغيرة مع ضعف علمه، بقي أن أثبت له عكس ذلك، حتى وإن لم نعد أصدقاء بعد ذلك، فقط أريد أن أثبت أن منا الصالحين ومنا دون ذلك.

كان آدم جالسًا على سريره وحيدًا في الغرفة، بدا وجهه



شاحبًا، عيناه زائغتان ينظر في الغرفة كلها، يتتبع كل دقائق إلى الأركان ويُدقق فيها، صوت القرآن ينبعث بقوة من الخارج، فكرت كيف أظهر له كثيرًا لكنني لم أهتدِ إلى حيلة كسابق عهدنا، قررت أن أظهر وحسب، إنها طبيعتي التي لا أنكرها واختلافنا الذي أتقبله.

كانت المُواجهة ضرورية، انتظرت عندما نظر إلى الأرض وأطال قليلًا وهو يُفكر، فوقفت عند الباب المُغلق، لمحني بطرف عينيه وكأنه تردد أن ينظر لكنه فعل، ارتعشت أصابعه وهو ينظر إلي، ساد الصمت بيننا وظل ينظر إلي بمشاعر مضطربة، نظرات يختلط فيها الخوف مع الحب وكثير من الأسئلة، ابتسمت وقلت:

- السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

تسمر آدم في مكانه ولم يتحرك حركة واحدة لكنه ظل هكذا يتأملني بوجه عجيب فأردفت:

- أنا عارف إنه موقف صعب عليك، بس صدقني أنا لسه نوح صاحبك، نوح اللي عمره ما آذاك أو فكر يئذيك، نوح اللي كان بيقولك على دروس الدين اللي اتعلمها من أمه، نوح اللي خلاك تصلي.. أنا بفكرك أنا مين قبل أنا جنسي إيه علشان تطمن، أنا مش قصدى أخوفك ولا في نيتي ولا أقدر أأذيك.

اختلفت نظرات آدم قليلًا وكأنه قد نسي خوفه للحظات



وتذكرني، لكن أطرافه مازالت متصلبة فأردفت وأنا أخاف أن ينفد صبره:

- هتفضل ساكت كده؟ مش فاهم؟ اتكلم يا آدم علشان متخافش..

أخذ ينظر إلي بتمعن دون حديث، فسرت إلى كرسي المكتب وجلست، فانتفض آدم والتصق بالحائط وراءه في جلسته.. ظل ينظر إلي تارة في خوف وتارة كصديق وأخيرًا سمعت صوته خائفًا مترددًا:

- هو أنا كده ملبوس خلاص؟ أنا قعدت معاك واتكلمت معاك كتير.. سلامٌ قولًا من رب رحيم.

- ملبوس إيه يا ابني؟ لما ممكن أروح أي حتة في العالم في ثواني أحجم نفسي ليه في جسمك؟ اهدا كده يا آدم.. أنا نوح صاحبك.. فاكرني؟

- أنا لما اتعرفت بنوح كان على أساس إنه إنس مش بسم الله الرحمن الرحيم جن.

- جن مسلم.. مسلم يا آدم.

قال بنبرة مرتعشة:

- ودي تفرق إيه بقى ما في الآخر جن؟

ابتسمت وقد تفهمت مشاعره وقُلت:



- المسلم لا يؤذي مخلوقًا، يعني لا بأذى إنس ولا جن ولا حيوان ولا أي حاجة خلقها ربنا، بنعمل بأخلاق وتعاليم الإسلام.. فاهم؟

بدأت نظرات الشك تختلف لكني لم أُجِدْ قراءة عينيه هذه المرة فواصلت ما أريد قوله:

- طيب شوف.. علشان تطمن أنا اللي بقوله مش كلام، أنا أثبتهولك بالفعل من غير ما تعرف.

- إمتى؟

- آخر يوم لما كنت طالع فوق وأنقذتك على آخر لحظة، مكانش حد هيرحمك من «عبدالله»..

اتسعت عيناه عن آخرهما وسأل في خوف:

- عبدالله مين؟

- عبدالله ده أبويا، اللي كان بيكلمك من الحيطة وبيرميك من فوق السرير، لكن أمي وقفت له يوم ما ظهر لك في نفس اليوم إنت وحسن، يعني أمي كمان أنقذتك..

- طيب وهو عايز مني إيه؟

- هو مش بيحب البني آدمين ومش بيآمن لهم، هو بس خايف عليا منك..

- خايف عليك مني أنا إزاي؟



- دي حكاية طويلة هحكيها لك بعدين.

- ثانية واحدة... إنت قلت إن هو اللي كان بيخوفني وبيعمل فيا كل ده؟

- أيوه.. للأسف هو.

نظر آدم إلى الغرفة في ذعر وقال:

- ده انتو عيلة بقى وساكنين الفيلا؟

- طبعًا.. من قبل ما انت تيجي الدنيا. من زمان قوي.

- وإيه اللي يضمن لي إنك متئذينيش؟

- أنا لو عايز أأذيك كان سهل جدًّا من زمان، لكن العكس هو اللي حصل.

ظل آدم ينظر إليَّ في بلاهة لم أعهدها فيه فأردفت:

- إنت قرأت القرآن زي ما قلتلك يا آدم؟

- والله أنا هتجنن.. أيوه قريت..

- من غير جنان ولا حاجة، عارف طبعًا إن ربنا سخر الجن لسيدنا سليمان..

- عارف.

- لما الهدهد حكى لسيدنا سليمان على ملكة سبأ وقال للملأ مين يجيبلي عرشها تفتكر مين اللي رد عليه؟ اتنين ولا واحد؟

- اتنين.. ليه؟



- الأول «قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك وإني عليه لقوى أمين»، والتاني «قال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك...» عارف يعني إيه؟

كان آدم قد هدأ إلى حد كبير ورأيته كسابق عهده معي، نظر إلي في حيرة وسألني:

- عارف تفسير الآية بس مش فاهم انت عايز تقول إيه.

- عايز أقول إن ربنا محددش هل اللي عنده علم من الكتاب ده جن ولا إنس علشان يبين لنا إن التفضيل مش بجنسك لكن بالعلم والاتباع، ميزان التفضيل عند ربنا مش بالجنس، ربنا قال: «إن أكرمكم عند الله أتقاكم» وأخفى جنس المخلوق علشان يقولك إنك تقدر توصل للدرجة دي، لأننا مكلفين زيكم تمام، زي ما ربنا قال: «وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون».

نظر إلي آدم وقد فارق الحائط ظهره وارتاح في جلسته وقد بدأ يأتمنني قليلًا ثم قال:

- أنا أول مرة أستوعب الكلام ده، ولما انتو كويسين كده باباك عايز يئذيني ليه؟

- علشان هو.. للأسف، أحد من زمان، لكن أنا وأمي مسلمين، ادعيله يا آدم.

رأيت الشفقة والخوف معًا في عينيه وسألني وكأنه يكتشفني



من جديد:

- مين أقوى إحنا ولا أنتم؟

ضحكت وقد انتابني شعور أنه ينوي أذيتي، لكن لن يستطيع فأنا مع الله رب العالمين، طال سكوتي فارتاب آدم وسألني:

- مبتردش ليه؟

- الإنسان أضعف مخلوق على الأرض، ناموسة تقرصك متعرفش تنام، عقرب يلدغك تموت فيها.. ميكروب ممكن يقلب حياتك، أبويا لما ظهر لك كان قلبك هيقف، حاجات كتيرة جدًا تؤلمه نفسيًا وتجيب له المرض، الحاجة الوحيدة اللي ربنا قواكم بيها هي العقل، أنتم أقوى من كل المخلوقات بحاجتين: بعقلكم وقربكم من الخالق.

- بس احنا بنستعيذ بالله من الشيطان الرجيم.. مش فاهم إزاي في منكم ناس... قصدي جن كويس.

- إحنا كمان بنستعيذ بالله من الشيطان الرجيم، أصل خلقنا إننا «جن».. اللي يعصى ربنا ويخرج عن منهجه يبقى شيطان ويخرج متنا.. ده الموضوع ببساطة، وفي كتاب الله آية في سورة الجن بتقول: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا﴾(١).

(١) [الجن: ١٤].



- أنا حاسس إني بحلم حلم غريب، مش عارف أنا المفروض أتعامل معاك ولا أبعد عنك.

- اسعَ في الخير في حياتك، حاول تفهِّم أهلك حقيقة الصلة بالله وقد إيه حلاوتها، هو ده اللي عايزك تعمله، أمي بتحاول تعمل ده مع أبويا دلوقتي.

عاد الذعر على وجه آدم وبدأ ينظر في كل الاتجاهات ثم نظر إلي وسألني:

- أبوك؟ هو لسه هنا؟

- أيوه لسه هنا.. هيروح فين؟ ده سكنه، ادعيله بس ربنا يهديه.

- سكنه!! طيب وهيئذيني؟

- أنا أوعدك إن مفيش أي أذى ممكن يحصل أنا وأمي بنحميك يا آدم.

بدا على آدم أنه يستوعب ما أقول، عادت ملامحه طبيعية مرة أخرى وقال:

- أنا هصدقك.. بس عندي شوية أسئلة.

- اسأل.

- إنت بتعمل معايا كده ليه؟

كنت أتوقع سؤاله وأنتظره فأجبت:



- أنا بحبك في الله حب غير مشروط بغض النظر عن الاختلاف، مش عايز منك حاجة، الحب فطرة كل مخلوق في الدنيا، أنا بحبك زى ما انت بكل عيوبك، بكل ضعفك وألمك وغلطك، بإخلاص يخليك تقبل اللي قدامك زى ما هو كده على طبيعته، تتقبله وما تحاولش تغيره غير للأحسن لو يناسب تركيبته، لو جربنا هتختفي الصراعات وتنتهي الحروب من العالم، لكن إحنا في الأرض وللأسف الشر هيفضل موجود لكن رحمة ربنا إن الخير كمان موجود ليوم الدين.

- كلامك غريب وأول مرة أسمعه وفى نفس الوقت صعب.

ابتسمت في هدوء وساد الصمت فسألني آدم:

- مين اللي علمك كل ده يا نوح؟

شردت وتذكرت وجه أمي الحبيبة التي علمتني أن الحب هو سر اكتمال الحياة وبقائها، وزواله هو سبب دمارها، لولا الحب لما صبرت أمي على أبي كل هذه السنوات، وترجمت حبها لي بأن علمتني حب الخشوع في الصلاة.. الاستماع إلى القرآن.. الحكمة في قصص السابقين. مواجهة فتن الدنيا، جعلتني أفكر إلى أين نسير؟ وكيف تتولى أفعالنا في الدنيا تحديد نهايتنا؟ أشياء كثيرة تعلمتها منها، أشياء أراحت سريرتي، حينها اطمأننت لحب الله في قلبي، بعدها شعرت بحبي لكل مخلوق في الكون، أردف «آدم»:



- إنت مرحان كده في إيه؟

- أمي.. هي صاحبة الفضل عليا في كل حاجة وهي اللي كانت بتديني دروس دين كل يوم من صغري.

- طيب سؤال برضه إنت تعرفني من إمتى؟

- من وانت صغير لكن مكنتش ينفع أكلمك أو أقرب لك علشان هتخاف مني زي ما انت عامل دلوقتي كده.. وكمان ما كنتش عارف أظهر لك ازاي بهيئتي.

أخيرًا ابتسم آدم فضحكت وضحك معي ثم سألني وكأنه قد تذكر شيئًا:

- إنت اللي خوفتنا أنا وحسن لما كُنا بنلعب بلاي ستيشن؟

حاولت أن أتذكر ثم صحت في مرح:

- لا ده كان قريبي، إنتو على طول عاملين دوشة، وهو كان عاجبه قوي البلاي ستيشن ونفسه يلعب معاكم، هو مكنش قصده يخوفكم، كل الموضوع كان عايز يتفرج، لكن ظهر للحظات بدون ما يقصد.

- بس ده شكله غيرك.

- ما الجن أشكال كتير.. مش لازم كلنا نبقى شكل واحد، هل البني آدمين كلهم شكل واحد؟

- امممم... طيب ناوي تعمل إيه؟



- مش عارف بصراحة، كان نفسي أروح مكة والمدينة زي جدي وأمي وأتعلم أكتر، لكن أعتقد دلوقتي أهم حاجة عندي أبويا، نفسي يرجع لطريق ربنا تاني. هو بدأ يقرب من فترة خصوصًا بعد محاولات أمي. لكني خايف الموضوع ممكن ياخد وقت. كمان هو كان بِعِد كتير عن طريق ربنا طول عمره.

- وانت بتتكلم ساعات بنسى إنك جن.. لما بفتكر بخاف.

- أنا فاهم يا آدم.. لو كنت مكانك كنت هعمل كده، عمومًا أنا مش هزورك كتير لكن هبقى أتابع أخبارك.

نظر إلي في حزن، أعلم أنه صادق في مشاعره، ابتسمت وقد علم أنه اللقاء الأخير فأردفت في صوت مخنوق:

- أوصيك بالصبر على الدنيا يا آدم وإدامة الصلة بالله لتنجو منها.

لم يستطع آدم أن يخفي مشاعر الخوف والقلق داخله، لكنه كان خائفًا من لمسي ولم أحزن لذلك، عندما فتح عينيه لم يجدني في الغرفة..



(١٩)

«آدم»

أواخر صيف ١٩٩٩م.

استيقظت بعد نوم مُطمئن عميق لم أعهده منذ فترة، نظرت إلى الدماء المُعلقة في السقف فابتسمت وقد اعتدتها ولم أعد أبالي، تذكرت ملامح «حسن» منذ أيام وأنا أسرد له كل ما مررت به، فضحكت بالغرفة، كان خائفًا لكنه يحاول الصمود أمامي، لكن عينيه وجفاف حلقه يفضحانه بشدة، أصوات كثيرة بالخارج تعبر البلكونة وتأتي إلي في سريري رغمًا عني، صوت «أم محمد» تصرخ وتسب «مروان» بالخارج كعادتها، ثم تهيأ لي أنني أسمع أصوات صخب لم أميزها بداخل البيت، لكنني لم أعد خائفًا كسابق عهدي؛ لذلك قُمت في شجاعة وفتحت باب الغرفة، ووقفت أمامه في كل الاتجاهات لأرى سبب الأصوات فلم يكن شيء على الإطلاق، رُبما كثرة الأحلام التي تراودني في الآونة الأخيرة، والتي لا أجد لاستمرارها سببًا منطقيًا، على أية حال الأمر انتهى وإن بدا كحُلم لا أصدقه، لم أنس قط حديثي مع «نوح» وكأنه

ملابسي استعدادًا للخروج، فأنا على موعد مع حسن لقضاء اليوم معًا، لم يتبقَّ إلا أن آخذ حمامًا ساخنًا لأزيل ما تعلق بي من تعب أخير، أحسست بملكيتي الحقيقية للبيت، أنا الآن المسئول عنه وعن حمايته.. وإن كُنت أعلم الآن بوجود عائلة من الجن تشاركني السكن، تناسيت بُكاء راقصة الباليه وأحسست أنني أستطيع أن أطير وقد انكشف لي أمر قد يبحث عنه كثير من الشيوخ ولا يهتدون إلى حقيقته.

دخلت الحمام وقُمت بإشعال السخان الذي يعمل بأنبوب الغاز كما علمني «مروان» في إحدى المرات، الأمر ليس مُعقدًا كما كانت تُحذرني أمي دائمًا، استسلمت للماء الدافئ المُنهمر فوق رأسي، أغمضت عيني وأحسست بسلام وهدوء نفسي كبير لدقائق، المشكلة الوحيدة كانت في سخونة الماء المفاجئة والتي



أوشكت أن تحرقني حروقًا كبيرة، لولا أن انتبهت فخرجت من تحت الماء بسرعة، فتحت عيني لأجد السخان أمامي مُشتعلًا والنار تعلو وتزيد، حمدت الله أن مكان البانيو بعيد عن السخان وإلا كنت احترقت، هرولت إلى الخارج والماء يتساقط مني عاريًا، ارتديت ملابسي التي أعددتها للخروج، صرخت بصوت عالٍ وأنا أهرول لأستغيث بعم محمد وتركت باب الفيلا مفتوحًا، خرج الرجل مُسرعًا من غرفته وعائلته وراءه يبدو عليهم القلق، فسألني في توتر:

- فى إيه يا آدم؟

- الحقني يا عم محمد البيت كله هيولع، أنا سايب النار في الحمام بتزيد بسرعة.

- من إيه؟

- السخان...

لم يكن رد فعله على مستوى الحدث، نظر الرجل إلى الفيلا نظرة غريبة لم أفهمها، لمحتُ «أم محمد» تلف شالها الأسود الخفيف وتستعد للخروج، أسرعنا نحو الفيلا، لكنني وجدت الباب مُغلقًا! تساءلت بصوت عالٍ.

- الباب كان مفتوح!

جاء رد «أم محمد» بسرعة يجيبني:



- ده أكيد الهوا.. هروح أجيب المفتاح اللي معايا بسرعة.

لكن نظرات «أبو محمد» لم تُرِحْني أبدًا وهو ينظر إلى الفيلا ويتمتم:

- هوا إيه اللي قفله ده مفيش نسمة واحدة! ثم إن الباب تقيل صعب هوا يقفله.

عادت «أم محمد» وأعطت المفتاح لزوجها ففتح الباب على الفور ودخلنا مندفعين تجاه الحمام، وقفنا أمامه صامتين، نظر إلي الخفير وزوجته في صمت، ثم تكلم «أبو محمد» بعد دقائق قليلة من الحيرة:

- فين الحريقة يا آدم؟

كانت عيناي معلقتين على السخان وشعلته الخافتة الهادئة، لا يوجد آثار ولو بسيطة لنيران اشتعلت منذ دقائق قليلة! وكأن شيئًا لم يكن! نظرت إلى «أبو محمد» في دهشة لم أكتمها:

- ساعة ما جريت عليك كانت النار موجودة وطايلة السقف! هو ممكن النار تنطفي لوحدها؟

لمحت «أم محمد» تنظر إلى السقف والجدران وتقرأ القرآن في صوت أكاد أسمعه، قطع زوجها الصمت:

- متأكد إن كان في حريقة؟ ولا يمكن كنت بتحلم؟ شكلك لسه صاحي من النوم..



أردت أن أبقى وحيدًا لأفكر فيما حدث، فأردفت:

- يمكن يا عم محمد.. معلش بتعبك معايا.

نظرات الرجل للبيت ملؤها الخوف والحيرة، أما نظراته لي فكلها شفقة وربما أحاديث مكتومة، خرج الرجل تسبقه زوجته وقد لاح عليها الخوف وأغلقت الباب، نظرتُ إلى الفيلا نظرة شاملة، لم أكن خائفًا هذه المرة بل تملكني التحدي، لا بد أنه «عبدالله»، لكن ألا يعلم أنني لا أقابل «نوح» منذ المرة الأخيرة؟ بدلت ملابسي وقد أصبحتْ مُبللة، خرجت فرأيت «مروان» عاقدًا يديه يتأمل الفيلا في فضول، مررت بجانبه وتلاقت أعيننا دون حديث فوجدته مُريبًا.

قابلت حسن في ميعادنا المتفق عليه، رأيته من بعيد مُبتسمًا ينتظرني، كُنت قد تحدثت إلى حسن عبر الهاتف البارحة بروح تملؤها الراحة، كان هذا منذ ساعات قليلة، لكنه يراني الآن وقد اختلفت وملأتني الشكوك من جديد، كُلما اقتربت منه تراجعت ابتسامته تدريجيًا، صافحته في برود فتفحصني وسأل:

- شكلك ميطمنش.. في حاجة جديدة ولا إيه؟ ده احنا المفروض هنحتفل؟

- يعني..

- مش فاهم يعني دي!



سردت له ما حدث قبل وقت قصير، بدا عليه القلق والخوف وأردف:

- مش كنا خلصنا من الهم ده يا ابني؟ هو بسم الله الرحمن الرحيم «عبدالله» شكله كده.. لو ليك كلام معاه قوله إنك مابقتش تكلم ابنه واخلص.

- هو إيه يا ابني اللي ليك كلام معاه! هي سهلة كده؟!

- أُمّال أقولك إيه يعني؟ ما انت بقيت بتكلمهم اللهم احفظنا، أقولّك.. ياللا نروح ناكل الأول.

- ماليش نِفس.

- ليه النكد يا آدم؟ اتفقنا نخرج ونحتفل إن الهم اللي كنت معيّشنا فيه خلص، تقوم تيجي تقولّي حريقة وانطفت وباب اتقفل وموال أزرق تاني؟

- وهو بإيدي يعني؟ أعمل إيه؟ قولّي إنت.

- ما تخلي «عم محمد» يجيب الشيخ اللي جابهولك قبل كده؟

- والله فكرة.. ما تفكر في حاجة كمان يمكن تنفع؟

- طيب ياللا الأول ناكل علشان هموت من الجوع وبعدين نبقى نفكر.

لم يُمهلني «حسن» للرد، أمسك يدي ومشينا إلى مطعم صغير لنقضي على أطباق من الفول والطعمية الشهية، أكلنا بنهم



من شدة الجوع وأكلت بنهم أكثر من شدة القلق.

انتهينا وتحدث «حسن» كثيرًا في أمور لا تهمني، رُبما لأنه لا يريد إلا أن يحتفل بتخلصي من الأيام السوداء، كما سبق وأكدت عليه، رُبما لا يريد أن يعترف أنها لم تنتهِ، ولا يريد أن يعرف شيئًا، لكنه أصر على الحديث في أي شيء وكل شيء عدا ما شاركته منذ قليل، أدركت نفسيته ومثلت أنني بخير إلى أن حان وقت الرجوع إلى البيت، فقد أمضيت أغلب النهار أصطنع الراحة، ودَّعته وذهبت إلى الفيلا لأواجه مصيري من جديد.

من بعيد بدا كل شيء طبيعيًّا وهادئًا داخل أسوارها، عبرت البوابة الحديدية التي تعود الخفير أن يتركها مواربة، وأمام باب الفيلا تحسست المفتاح في جيبي فلم أجده، لا أذكر هل وضعته في جيبي أم أنني نسيته قبل خروجي. سمعت صوت القرآن عاليًا من الداخل، لابد أن «أم محمد» مَن أدارته، رجعت إليها فقابلت «مروان» يتحدث إلى صديقه، ولاحظت عليه الوجوم، ألقيت التحية عليهما وسألت «مروان»:

- كنت عايز مامتك ضروري.

- راحت تعزي وجاية.. عايزها ليه؟

- طيب شوف نسخة مفتاح الفيلا اللي معاكم فين كده؟ عايز أدخل ونسيت مفتاحي جوه.



نظر إلي بثقة وأردف:

- دور في جيبك.. أنا شايفه في إيدك وانت خارج.

تحسست جيبي مُردفًا: «مش لاقيه.. دورت وشكلي...»

ثم توقفت عما أفعل أو أقول، فقد وجدت المفتاح في جيبي! لا بد أن ملامحي بدت عليها الدهشة أو رُبما الخوف، فنظر صديق «مروان» له في ارتياب ثم نظر لي، بينما احتل الفضول نظرات «مروان» وأردف:

- لقيته؟

نظرت إليهما وجاهدت لرسم ابتسامة وتوجهت نحو الباب في خطّى سريعة وقد غلبني الغضب! فتحت الباب وأغلقته بعصبية ووقفت وراءه أنظر إلى كل شيء بالداخل وقد توقف صوت القرآن! ازددتُ عصبية وتحدثت في صوت عالٍ:

- بتعمل كده ليه يا عبدالله؟ أنا مش خايف منك.. أنا مقدر إحساسك وإن في بني آدمين ميتعاشروش، فاهم شكوكك في الدين، بس أنا مش بشوف ابنك بقالي فترة واطّمن مش هشوفه تاني، وبعدين ماليش ذنب في أي حاجة إنت مريت بيها، بتئذيني ليه؟! أنا راضي إنكم قاعدين في البيت لكن خلونا نعيش في سلام.

توقفت عن الكلام ولم يحدث شيء، ظللت هكذا لدقائق



أراقب ما حولي دون فائدة، مررت على الحمام في طريقي إلى غرفتي فنظرت إلى شعلة السخان الهادئة ترقص وكأنها تهزأ بي، دخلت الغرفة وأغلقتها ثم بدلت ملابسي، تذكرت أنني لم أصلِّ شيئًا من صلوات اليوم، أردت أن أقوم فأتوضأ لأنني لم أشأ أن أدخل الحمام، استغفرت الله ونويت الصلاة غدًا، لم أطفئ النور وشرعت في النوم، قرأت آية الكرسي كما أوصاني «نوح» وغفوت قليلًا.

لكنني بعد فترة من الزمن لا أعلمها استيقظت على صوت باب الفيلا الداخلي يُغلق بقوة، ثم أصوات خلف باب الغرفة كافية لأبقى في حالة مُزرية، أصوات حشرجة ولغة لا أتبينها، أصوات رفيعة وأخرى غليظة تتداخل وكأنها في شجار عنيف! انقطع نور الغرفة فجأة وبدأت خبطات عنيفة على الباب من الخارج! وكأن أحدًا يريد كسره! أحسست أن قلبي سيتوقف، حنجرتي لا تسعفني بالنداء على أي مخلوق، تمنيت لو يحضر «نوح» وينقذني، أم أنه أتى بالفعل لينقذني من شر «عبدالله»؟

مرت دقائق لا أذكر عددها وخبطات الباب تزداد عنفًا، حتى اعتقدت أن الباب قد انكسر في إحداها، وأنا أجلس مُنكمشًا في زاوية السرير لا حول لي ولا قوة أغرق في عرقي، عدا أنني أقرأ آيات متقطعة في سري وأرتجف من الداخل والخارج، فجأة



توقف كل ما يدور، لكن صرير السلم الخشبي أحدث ضجيجًا، أرجل كثيرة تصعد أو تنزل عليه، فجأة أتاني صوت القرآن عاليًا، وأضيء نور الغرفة من جديد!

نظرت إلى ساعة الحائط فكانت متوقفة عند الساعة الثانية عشرة، نظرت إلى ساعتي فوجدتها الثانية عشرة بعد منتصف الليل، مُستحيل أن تدخل «أم محمد» الفيلا في مثل هذه الساعة، عائلة الخفير بأكملها غير مُعتادة على السهر، لكن صوت إغلاق الباب كان واضحًا، هل حضر «نوح» لينقذني من والده فأدار جهاز التسجيل على شريط سورة البقرة الذي لا يغادره؟ أشكرك يا صديقي، هل احترق «عبدالله»؟ هل يقتل الابن والده من أجل صديقه؟ صديق من جنس آخر! مازلت أرتعش وأتعرق، لا أجرؤ على الخروج من إطار السرير.

أردت بشدة الذهاب إلى الحمام لكن دون شجاعة كافية لأذهب، التحفت بالغطاء ورددت كل ما حفظته من القرآن الكريم إلى أن غفوت جالسًا، بعد فترة لا أعلمها استيقظت على يد تضرب كفي بعنف! تلفتُّ حولي فلم أجد أحدًا، لكن النور انقطع مرة أخرى للحظات، ثم عاد نور الغرفة باهتًا وكأنه ضوء شمعة بالكاد تُنير ما حولها، رأيت خيالًا لكلب ضخم يقف في الغرفة لكنه تلاشى عندما سمعت صوت نوح مدويًا بالخارج



يقول في حزم:

- إحنا مش هنمشي من البيت ولا سكانه هيبيعوه.. إحنا حراس الأثر وأظن الكل عارف.

أخذت أتلفت حولي وقد انكمشت في مكاني أكثر، بعد قليل وشيئًا فشيئًا تجسد شخص لا أعرفه يجلس على طرف سريري، كان ينظر إلى الأرض لكنه بدأ يضحك تدريجيًّا بصوت عالٍ، ثم أخذ يتلفت نحوي ببطء، ويا هول ما رأيت! كان أبي! صحت غير مُصدق مُتلهفًا عليه للحظات: «بابا!! إنت فين؟».

كانت ملامح أبي لكنه ليس هو، كان غريبًا ومُريعًا، نظر إلي في سُخرية وقال:

- قلتلك متدخلش حد غريب البيت، متعرفش على حد غريب، مسمعتش الكلام ليه؟ عاجبك اللي بيحصل في البيت دلوقتي؟ عاجبك الخناقة اللي دايرة بسببك؟ إنت مش راجل، يا خسارة مش هعرف أعتمد عليك، لكن ممكن أسامحك لو سمعت كلامي..

هذه كلمات أبي التي أوصاني بها وخالفتها! ثم انتبهت للخديعة، وتحجرت عيناي عليه غير مُصدق ما أرى، نظر إلي نظرات شيطانية مُريبة تقشعر لها الأبدان والقلوب، وتحولت عيناه تدريجيًّا من حُمرة خفيفة إلى حُمرة جمرة من اللهب! تحجرت



عيناي على عينيه وأنا أكاد أموت من الخوف ثم نطقت شفتاي بتلقائية:

- أعوذ بالله من الشيطان الرجيم..

وعندها رمى الكائن شيئًا على الأرض في غضب فكانت كتلة من النار اشتعلت وتوهجت ثم انطفأت، ثم نظر إلي في غضب عارم وأردف في صوت غليظ:

- اخرس.

ارتعبت منه واضعًا كفي فوق شفتيَّ كاتمًا صرخة خوف، لكن صوت نوح كان عاليًا يرتل آيات قرآنية بعينها تضايق وتؤذي هذا الكائن أمامي، نزلت دموعي وأنفاسي تكاد تزهق من الرعب، فأردف في غرور وسُخرية وألم بصوت كالخنزير:

- لما انتو بتخافوا قوي كده.. عاملين دوشة ليه؟ بتفاخروا بإيه في الدنيا؟

ثم ضحك ضحكة أرعبتني حد الموت، استجمعت كل أطرافي المجمدة وصرخت: «الله أكبر.. الله أكبر»، فنظر إلي نظرة خاطفة غاضبة وبدأت أرى نارًا تشتعل في بعض أجزائه كلما علا صوت نوح بالخارج، صرخت مرة أخرى: «الله أكبر.. الله أكبر.. الله أكبر» فرأيته يتلاشى وأظلم النور!

لا أعرف كيف انتفضت واقفًا مكاني لأضيء الغرفة



بسرعة، لم يردد لساني إلا قول «الله أكبر» لفترة كبيرة من الوقت لم أحسبها، نظرت في أرجاء الغرفة فوجدت رمادًا أسود كثيرًا ينتشر في الغرفة ويتجه إلى الباب.

كان الهدوء يخيم على البيت، وقفت وراء الباب أستمع لأية أصوات قادمة من خارج الغرفة، فلم أسمع إلا صوت السكون، فتحت الباب بهدوء شديد وطافت عيناي بالخارج فلم أرَ شيئًا غريبًا، عدا آثار أقدام كبيرة جدًّا غريبة ليست كأقدامنا ملوثة بدماء! الآثار قوية أمام باب غرفتي، تضعف قوة الأثر كُلما ابتعدت، اتجهت الأقدام نحو السلم الخشبي، بات جليًّا أن صاحب آثار الدماء قد صعد إلى الدور العلوي!

هالني ما حدث وأنا وحيد، أغلقت الباب مرة أخرى وجلست على سريري أنظر إلى طرفه، وأسترجع صورة أبي في هذا الكائن الذي رأيته! نظرت إلى الساعة مازالت الثانية عشرة، ساعتي تشير إلى الثانية صباحًا، لم أفهم شيئًا حينها لكني جلست أقرأ القرآن وأنتظر الفجر، أناجي الله: «لا ملجأ منك إلا إليك» إلى أن فُتح الباب دفعة واحدة ورأيت «نوح» يبدو عليه التعب الشديد.

* * *



(٢٠)

«عبدالله»

رأيتهما من الشرفة يتبادلان شيئًا وينظران بحذر إلى الفيلا، تساءلت: ما الشيء الذي يجمعهما في هذه الساعة المتأخرة من الليل؟ طرت ووقفت بجانبهما وكانت صدمتي عظيمة حين سمعت «حسن» صديق «آدم» المقرب يتلفت حوله في قلق مُردفًا:

- عد الفلوس بعدين يا غبي.

نظر إليه مروان وابتسم فأردف بخبث:

- إيه.. خايف؟

- يعني لو آدم صحي وشافنا هقوله إيه؟ جاي دلوقتي ليه يعني؟

- متقلقش هو مش هيشوفنا.. هو بيفضل قاعد مرعوب في السرير حتى الحمام بيخاف يروحه.

ثم ضحك ضحكة خافتة سريعة وأردف:

- مظبوطة الفلوس تمام يا صاحبي.



هدأ حسن قليلًا ثم أكد على مروان:

- إنت بترمي اللي بديهولك بانتظام في الفيلا؟

- طبعًا حسب الاتفاق..

- مش هوصيك بقى.. أول ما الدنيا تتقلب تبلغني أبلغ أبويا علشان هيعمل حاجات من مكانه.

- هو اللي هيعمل؟

- يا ابني الراجل اللي جايبه يعني..

- آآآه.. هو المفروض الميعاد النهارده وكلهم جايين..

- وانت هتعرف إزاي إن الدنيا باظت جوه وآدم مش بيتحرك من مكانه؟

نظر مروان إلى الفيلا في غموض وقال:

- النور بيولع ويطفي وبعدين يرعش كده ويثبت كأنه نور شمعة ولو قربت شوية من الفيلا هتسمع أصوات غريبة.

دلت نظرات حسن على خوف يحاول أن يخفيه ثم سأله في فضول:

- وانت بتقرب من الفيلا؟

- لحد معين مقدرش أدخل ساعتها أتنذى.

سادت لحظات صمت ومروان يخفي النقود في ملابسه مُبتسمًا يرمقه حسن بملامح غامضة ويهم أن يسير خارج البوابة

- زي ما انت بتعمل معاه كده بالظبط وهو أعز أصحابك.

تحرج حسن من الرد وقال في تلعثم:

- أنا في الآخر بطيع أبويا يا مروان، أبويا قرا مذكراتي اللي كنت كاتبها عن اللي شفته في الفيلا هنا، اتأكد إني كنت بكدب عليه لما كان بيراقبني علشان يعرف أنا وآدم أصحاب فعلًا ولا لأ، بصراحة أهلي هم الأولوية في حياتي وبعدين ييجي وراهم أي حاجة تانية، ثم إن أبويا حكى لي عن الأثر اللي في الفيلا وإنه أصلًا بتاعنا إحنا.. يعني مش بنسرقه، هما اللي حاطين إيديهم عليه.

ضحك مروان مرة ثانية وهو يلعب في شعر رأسه ثم أردف في ثقة:

- إنت عارف وأنا عارف إن الكلام ده مش حقيقي.. خليك صريح مع نفسك.. إنت لو مع الحق مش هتسمع كلام أبوك،



لكن إنت عايز تعيش المغامرة وتفهم السر حتى لو على حساب صاحبك، أنا بقى عندي الأهم، أخويا اللي مات هدر مين انتقم له؟ أبويا بقى ضعيف وفلوسه راحت، إذا هو كان غشيم أنا لأ.. عبدالله هطفشه أو هيتحرق.. وحلال عليكم الأمانة وحلال علي باقي الفلوس

تلفت حسن حوله في خوف وأردف:

- اللهم احفظنا.. خلاص خلاص.

هكذا حال أغلب الإنس، يدعون الوفاء والفضيلة ثم يخونون بعضهم، تعجبت من خيانة حسن لصديق عمره آدم بحجة طاعة والده، وتعجبت كذلك من خيانة مروان وهو المكلف بحراسته مع والده أيضًا، رغم هذا وبكل بجاحة يطلبون الحفظ من الله!

هممت أن أظهر وألقنهما درسًا.. كظمت غيظي وما هي إلا لحظات ورأيت نارًا تأكل البيت كله من الداخل دون دخان، ففهمت أن الحرب قد بدأت، تركتهما محملقين للفيلا في ذهول وقد هرول حسن إلى الخارج ومروان إلى حيث أبيه الذي خرج من غرفته متنبهًا إلى نور الحريق وقد انتابه الفزع، طرت إلى داخل الفيلا وحمدت الله أن آدم مازال بداخل غرفته لم يخرج.

***



(٢١)

«نوح»

أصعب الخيانات هي التي تأتي من أقرب الأقربين، والخيانة هذه المرة جاءت من صديق أبي، فور أن رآني وأنا أدخل قال:

- ابن الحارس البار وصل.

قالها وهو يبتسم باستهزاء ونظر إلي في حنق ولكن في خوف أيضًا، وقد فهمت مخاوف أبي الذي علا صوته قائلًا:

- إيه اللي جابك دلوقتي يا «نوح»؟

لم أستطع أن أشاهد أبي القوي ضعيفًا هكذا وقد تجمع ضده أصدقاء الأمس وأصبحوا ألد أعدائه بعد عودته لإسلامه، أردفت:

- لازم أكون موجود معاك.. أنا عارف كل حاجة وكنت مراقب حسن ومروان، متقلقش عليًا.. إحنا أقوى.

ثم نظرت إلى صديقه الخائن وبدا علي التحدي وقلت:

- إحنا مش هنمشي من البيت ولا سكانه هيبيعوه.. إحنا حراس الأثر وكلكم عارفين.



- جميل.. مستنيين من زمن علشان نخلص من العيلة كلها.

هكذا جاءني رد صديق أبي القديم مُستهزئًا بي.. نظرت إليه في ثقة وأردفت سريعًا:

- ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾[1].

طار في الهواء وسمعت صوت صرخته مدويًا فنزل علي والتحمنا، لكن والدي تدخل وأنقذني فأردفت في سرعة:

- ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾[2].

اشتعلت المعركة بينه وبين والدي وقد جرحه جرحًا غائرًا هذا الذي حسبه صديقًا يومًا ما، رأيت دموع أبي لأول وآخر مرة وهو ينظر مُندهشًا إلى صديقه، ثم سمعته وكأنه يُحدث نفسه ويقول همسًا: «سلامًا مُفارقًا لا يلتفت إلى ما قبله» فضحك صديقه في سخرية واقترب من أبي فأردفت:

- ﴿وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا﴾[3].

---

(١) [النساء: ٥٦].

(٢) [الأنفال: ٥٠].

(٣) [الكهف: ٥٩].



توقف عن ملاحقة أبي وبدأ يقترب مني وقد بدا أبي مُنهكًا فأسرعت في تلاوة الآيات سريعًا واحدة تلو الأخرى، لكنه طرحني أرضًا فخارت قواي وشعرت بضعف لكنني أصررت على تلاوة الآية الكريمة بقوة:

- ﴿ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴾[1].

تحول صوته إلى خوار غليظ، وأخذ يطوف في أنحاء البيت ويتخبط وتنزف الحروق من جميع جسده دون توقف، ثم هبط ونظر إلي وإلى والدي متوعدًا وأخذ يردد: «مش هسيبك يا عبدالله. مش هسيبك يا نوح»، ثم خرق باب غرفة آدم، سمعته وهو يتحدث إلى آدم ويخيفه ولم أستطع أن أنفذ منه فرددت بصوت عالٍ:

- ﴿ إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ

(١) [الحج: ١٩-٢٢].



﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾[1].

فإذا بصرخة مدوية تملأ المكان وتهدأ رويدًا رويدًا إلى أن صمت الصوت تمامًا، ذهبت إلى والدي وأسندته إلى أقرب كرسي، ثم ذهبت إلى آدم وفتحت الباب عليه كي لا أخيفه أكثر، طالت نظرات الصمت بيننا وكان قد بدأ يفهم ما يحدث حوله ورأيت عينيه تستغيثان فرددت مُنهكًا:

- ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[2] صدق الله العظيم.

نظر آدم وقد إمتلأ رعبًا وسمعت صوته الباكي المُرتعش يهمس:

- هو كده اتحرق؟

تمنيت هذا لكني أجبته..

- الله أعلم.

❊ ❊ ❊

(1) [الدخان: ٤٣-٤٩].

(2) [القصص: ٨٨].



(٢٢)

«عبدالله»

سمعت باب الفيلا يُفتح بقوة، ثم أتاني صوت الخفير مُتلهفًا يتفقد آدم ويطمئن عليه، لا بد أنه انزعج كثيرًا من رؤية الحريق، ثم سمعت صوت خطواته إلى الأعلى، يتفقد كل شيء ويُسبح ويُكبر، ربما يحدث نفسه بأنه قد رأى الحريق بعينيه فكيف لم يكن؟! سمعته يتذكر آدم عندما فر هاربًا من حريق لم يحدث في الحمام. وتذكرت أنا كلمات «آدم» التي رددتها وراءه: «لا ملجأ منك إلا إليك» وأنا مُصاب، بالأمس آذيتك واليوم أحميك! عجيبة هي الدنيا في تقلباتها!

كانت «سارة» تبكي وتطبب جروحي، لم أكن أبالي بالجروح، كنت أفكر في صداقة سنوات طويلة انقلبت إلى عداوة بعدما أشهرت إسلامي، دخل «عم محمد» الغرفة يتفحصها وينظر إلى جدرانها وأثاثها ويتمتم: «يا ربي! أنا شايف النار بعيني اللي هياكلها الدود بتنهش في البيت! رحمتك يا رب»، طلبت من زوجتي أن تتركني لأستريح قليلًا ففعلت، نظرت إلى الأب



المكلوم منذ سنوات في شفقة وقررت أن أتحدث معه على غير عادتي مع الإنس فأردفت في صوت خافت:

- السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

وقف الرجل وقد احمرت أذناه في نفس اللحظة وبقي مُتصلبًا ينظر إلى كل أركان الغرفة والسقف، فأردفت في هدوء:

- أرجوك متخافش أنااا...

ارتعش الرجل وأخذ يردد بلا توقف:

- «الله أكبر.. الله أكبر» مين.. مين.. لا إله إلا الله..

انتظرت حتى التقط أنفاسه وأردفت:

- «سيدنا محمد رسول الله».

فغر الرجل فاه وجحظت عيناه وهو يتلفت حوله مذعورًا ولم يعلق، لكنني فعلت:

- أنا الحارس عبدالله يا أبو محمد، أنا مش حابب إنك تشوفني تاني لأن أول مرة شُفتني كان يوم...

تساقطت دموعه وانهمرت الواحدة تلو الأخرى وانفطر قلبي معها لكنني أريده أن يستمع إلي فقلت:

- ابنك محمد الله يرحمه أنا ملمستوش.. خوفه مني هو السبب.. أنا مش بنكر إني كنت سبب وعلشان كده دلوقتي بطلب منك تسامحني.



توقف الرجل عن الخوف لكنه لم يتوقف عن البكاء فأكملت:

- أنا عارف إن الموقف صعب على أي بني آدم، لكن أنا قررت أكلمك علشان حاجتين: الأولى ابنك مروان بيكلم عيلة السعدني وبيساعدهم ياخدوا التعويذة اللي انت عارفها.. اللي بيتحججوا بكلمة الأثر عشان يوصلوا لها، المشكلة مش في قوة شر التعويذة بس، المشكلة إن كل اللي بيساعد هيتأذي، يعني ابنك مش هيسلم منهم صدقني، صاحبي اللي كان هنا إمبارح كمان مع السعدني وده ملوش عهد، ابعده عن كل ده وحصنه و...

قاطعني الرجل في حدة وهو يتلفت في كل الاتجاهات وعلا صوته:

- لأ.. مروان لأ.. مش هتعرف تئذيه يا عبدالله.. ألاعيبك دي أنا فاهمها كويس.. ولعلمك أنا مش خايف منك حتى لو هموت، لكن مش هسيبك تموِّت عيالي وأبقى جبان تاني.. أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.. بسم الله الرحمن الر...

قاطعته بدوري في هدوء:

- أنا أسلمت يا محمد وسلمت أمري لله.. وزي ما حاربت الأذى إمبارح هحاربه لآخر يوم في عمري، ممكن تتأكد من ابنك على كل اللي قلته، هو من الناس اللي عايزة تئذيني ومع



إغلاق الباب وراءه.

تأملت حياتي السابقة وما آلت إليه فقط خلال بضعة أشهر قليلة، ضعفي وقوة إيمان «نوح»، وكيف جعل إنسيًّا يلجأ إلى الله، وأوصاني به خيرًا قبل ذهابه إلى مكة المكرمة، وكيف آذيت أنا إنسيًّا لحد الموت دون مبالاة، كيف لم أنتبه إلى هراء الحياة وخدعها؟ كيف أغويت نفسي مثلما أغويت كثيرًا من الجن والإنس؟ لكنَّ ذا الفضل الكريم قد منَّ علي بالإيمان بعد كفر دام سنوات كثيرة، منَّ علي بزوجة صالحة وابن بار، وها أنا أحاول تصحيح خطئي لكن.. هل يغفر لي الله؟

دق الباب ثم فُتح على مهل، كان ابني يستأذن في الدخول فأجبته وكنت أعرف أن آدم ينتظره بالخارج يريد أن يشكرني لإنقاذه، دخل نوح وأردف:



- الحمد لله على سلامتك يا والدي.

ابتسمت له في حنو فجاء وضمني قليلًا فأردفت:

- الحمد لله على كل شيء.. صاحبك نفسه يشوفني دخَّله..

نظر إلى نوح وابتسم وأشار لآدم بالدخول، دخل آدم بخطّى بطيئة خائفة يهاب الموقف ولا أنكره عليه، رآني وتحجرت عيناه وارتعشت يداه قليلًا فبدأتُ الحديث:

- ادخل يا آدم متخافش.. اقعد..

نظر إلى نوح فطمأنه فجلس، ثم دخلت سارة تحاول أن تبدو طبيعية وأنا أعلم بحزنها وبكائها، رآها آدم ففزع في بادئ الأمر، ورأته هي فنظرت لي في تعجب فأشرت عليها بالجلوس وأردفت:

- آدم دلوقتي مؤهل إنه يشوفنا ويتعامل معانا يا سارة، صحيح سنه صغير بس أنا واثق إنه راجل.

ابتسم ابتسامة غريبة ولم يعلق فسألته:

- لسه خايف يا آدم؟

نظر إلينا جميعًا ثم إلى الأرض وقال كأنه يتحدث إلى نفسه:

- مش عارف أنا بحلم ولا ده بجد؟ حسن يطلع خاين! مروان كمان! طيب ليه؟ إنتو اللي تحموني! مش قصدي بس عقلي مش قادر يستوعب ليه الناس بتقابل الخير بالشر؟



ساد الصمت لحظات وأكمل:

- عمومًا أنا عرفت من نوح إنك رجعت لربنا وإنك كنت بتحميني مش بتئذيني الفترة الأخيرة، أشكرك و....

قاطعته وقد غلبني التعب:

- سامحني على كل اللي عملته معاك في الأول، أنا مكنتش عندي ثقة في أي إنسي لكن إنت ونوح غيرتوا لي الفكرة دي، خليك دايمًا قريب من ربنا مفيش مخلوق يقدر يئذيك، في حاجة مهمة جدًّا لازم تعملها دلوقتي.

- إيه؟

- أنا اللي رباني جدك الكبير - الله يرحمه - بعد ما مات أهلي في الشام، كان يعرف عيلتي كويس لأن أبويا كان حارس التعويذة، وقبل ما يموت وصاني لو حصله حاجة آجي على بيت الخولي، وفعلًا نفذت الوصية وجيت ورباني وأكرمني، فهمت لما كبرت إني لازم أكمل اللي بدأه وأكون الحارس لحد ما الوصية تتنفذ، جدك كان يعرف جن كتير مسلم من كل البلاد وكانوا بيساعدوه في الخير، النهارده لازم أرد له الجميل، جدك وصّى أبويا إن التعويذة دي متتفتحش إلا على يد نسل صالح، وأنا شايف ده فيك دلوقتي يا آدم.. مشفتش اللي في عينيك في نسل



قبلك.

- أنا؟ طيب أعمل بيها إيه؟ دي سبب كل البلاوي اللي حصلت.

- التعويذة كانت مكتوبة على يد كاهن يهودي يُقال إنه من عيلة السعدني، ألحد بعد ما درس السحر وسيطرت على دماغه فكرة السيطرة على كل اللي حواليه. الأرض دي كانت ملك لعيلة السعدني فعلًا زمان وجدك الكبير اشتراها منهم وبدأ يبني البيت، لما وقعت في إيده المخطوطة اللي فيها التعويذة دي فهمها وهو كان رجل صالح، دفنها في أوضة صغيرة تحت البيت، لكنه استشار ناس من البلد في أمرها.. ولما الموضوع اتعرف عيلة السعدني طالبت بيها وجدك رفض، وفضل الصراع عليها زمن، الوصية الشفوية اللي حافظ عليها جدي الحارس ومن بعده أبويا في حراسة التعويذة ومن بعده العبد لله بتقول الابن الصالح اللي يمسكها يحرقها فورًا دون النظر إليها وإلا هيتئذي، نوح هيكون معاك لكن لحد باب القبو بس.. ميقدرش يكون متواجد وانت بتحرقها وإلا الشر ممكن ييجي علينا كلنا.

نظر إلي نوح في دهشة، أعلم ما تخفيه الجرة في القبو بداخلها من تعويذة شريرة تجلب الكثير من القوة لمن يقتنيها، وأعلم





أعطته لـ«عبدالله»، نظر إلى الأخير وقال بحزم:



- قرب يا آدم.. المفتاح ده بتاع قبو الفيلا، المفتاح ده كنت حارس عليه وكان من قبلي أبويا ومن قبله جدي، المفتاح ده قيمته غالية جدًا، كتير ممكن يعملوا أي حاجة علشان يبقى في إيدهم، النهارده أنا وانت لازم ننفذ وصية جدودنا، اللي كان كل همهم إرضاء الله ومحاربة الفساد في الأرض، امسك..

اقتربت منه في وجل ونظرت إلى المفتاح الأثري وأمسكته خائفًا فأكمل «عبدالله»:

- اتوضا وانزل تحت، اقرأ آية الكرسي وانت على يقين إن ربنا هيحميك ويساعدك، افتح الباب، ولو شفت حاجة غريبة متخافش، القبو على شكل مربع، الركن الشمال اللي قدامك هتلاقي عليه قماشة حمرا قديمة فوقها سبع أحجار، احفر تحتها هتلاقي جرة من الفخار.



- وبعد كده..

- سمّ الله واكسرها.. هتلاقي المخطوطة اللي فيها التعويذة، الوصية بتقول إنك فورًا تحرقها وانت بتقرأ آية الكرسي.

- هحرقها.

- اوعى تبص فيها أو تحاول تقرأ فيها أي حاجة.. احرقها على طول من غير تردد، خليك قوي، اوعى تخاف مهما حصل، اوعى تضعف يا آدم، كل اللي فات هيروح وكل اللي جاي عليك وعلى عيلتك هيكون خير أو شر حسب تنفيذك للوصية دي.

ارتعبت مما سمعت، وسمعت دقات قلبي كأنها طبول، نظر «عبدالله» إلى نوح وقال:

- خليك معاه يا نوح لحد باب القبو..

أومأ نوح بالطاعة فأردف والده:

- توكل على الله يا آدم.. نفذ الوصية وربنا معاك.. خلي بالك من نفسك.. النفس أمارة بالسوء.

نظرت إليه وأردفت بصوت خائف: «حاضر»، لبرهة من الوقت نسيت أن هذه العائلة من الجن وأنني من الإنس، فنحن الآن نتعاون على محاربة شر قديم دُفن بمنزلي وأريد تخليصه منه.

نظرنا إلى بعضنا أنا ونوح وسيطرت علينا روح المهمة التي اختارنا الله لقضائها، كنت أقاوم الخوف بداخلي، ينطق قلبي



بالاستعاذة والبسملة طول الوقت دن توقف، نزلنا من الطابق العلوي ثم صالة الاستقبال ثم نزلنا بضع درجات أخرى إلى باب القبو، هذا الباب الصغير القديم الذي لم يأتِ بخاطري مرة واحدة أن يكون سببًا لكل ما عانيته.

وضعت المفتاح الكبير القديم في فتحة الباب العجيبة فانفتح في سلاسة لم أعهدها من قبل في فتح أي باب، نظرت أنا ونوح إلى بعضنا ذاهلين، كان القبو مظلمًا لدرجة مخيفة، وقف نوح على عتبة القبو وأعطاني شمعة مُشتعلة لم أعرف كيف أتى بها!

نظرت إليه مُنبهرًا ثم شرعت أدخل القبو فأوقفني نوح وقال:

- متنساش كلام الحارس.. اقرأ آية الكرسي الأول وسمِّ الله وادخل برجلك اليمين.. تحفر لحد ما تلاقي الجرة.. تحرق التعويذة من غير ما تقرأ يا آدم. اوعى تستسلم للشيطان.. الموضوع مش هيكون سهل.

شكرته بعيني وأغمضتها لأنفذ ما قاله الحارس.. سميت الله ودخلت، ظلام دامس، قبو صغير مُربع، تجولت بضوء الشمعة الضعيف في أركانه فلم أجد شيئًا سوى بضعة مربعات ونجوم بيضاء قد رُسمت على الجدران وتلاشت بفعل الزمن، أرضية القبو كانت وكأنها رملية، نظرت في الأركان فلم أجد شيئًا! ثم



أحسست بنفس أحدهم ورائي مُباشرة! كيف ونوح ممنوع عليه أن يدخل معي؟!

ارتجف قلبي للحظات فجاءني صوت «نوح» في أذني يقول: «القرآن»، فتذكرت ألا أتوقف عن ترديده وأخذت أقرأ ما تيسر لي، وحينها اختفى ما أخافني، أعدت النظر إلى الأركان فرأيت طرف القماشة الحمراء كما وصف عبدالله الحارس! أكان هذا النفس يلهيني عن رؤيتها؟

أمسكت طرفها وجذبتها فطارت الأحجار في الهواء ولم تقع! أحسست أن يدًا تقبض على حنجرتي! كأنني أختنق.. أسرعت دقات قلبي، ثم بدأت الحجارة تهوي على رأسي بقوة واحدًا تلو الآخر ولا تقع على الأرض! يضرب رأسي ويطير فيعود إلى ضربي مرة أخرى!

لم أدر ماذا أفعل فجاء صوت نوح ولكنه كان بعيدًا جدًّا كأنه من خارج الفيلا وكان يصيح.

- القرآن يا آدم.. ما تسكتش لحظة عن القرآن..

تعجبت من السبب الذي جعلني أتوقف عن ترديد القرآن فعاودت القراءة وأخذت أردد آية الكرسي وفكاي يرتعشان.. لكن هذه المرة أخذت أقرأ بصوت عالٍ به تحدٍّ لمن لا أراه، فوقعت الحجارة كلها على الأرض، «تنفست»، سمعت صوت



نوح بأذني مرة أخرى يقول: «الله أكبر»، بدون توقف أخذت أرددها وأنا أحفر الأرض.. وكلما حفرت وجدت الأرضية مستوية وكأنني أبدأ من جديد.. لم أفهم ثم بتلقائية أخذت أردد القرآن وأعيد الحفر حتى رأيت شيئًا من الجرة بدأ يظهر.. كما رأيت أشياء أخرى لا أتبينها بالغرفة تطير! تجري! خيالات سوداء كأنها دخان! صوتي يعلو أكثر فأكثر وتظهر الجرة تدريجيًا، أخذت أحفر أسرع إلى أن أمسكت طرفها فسمعت صوت عويل ونحيب كثير..

رأيت رجلا قبيح المنظر يرتدي سوادًا ويطوف في الغرفة ويضرب رأسه بجدرانها، سمعت صوت نوح وهو يبتعد أكثر وأكثر وبعض الأصوات تتداخل معه في صراخ عجيب ومرعب وهو يردد «استعن بالله»، فأخذت أردد آيات قد حفظتها من سورة «البقرة»، لكن الرجل أخذ يضرب رأسه بعنف بالحائط فكدت أقوم لأفر هاربًا لكنه بدأ يتلاشى تدريجيًا وهو يصرخ، وخَفَتَ نور الشمعة حتى ظننت أنها انطفأت حينها قبضت يدي على الجرة اللعينة كلها فكسرتها في الحائط بقوة وبقيت في الظلام للحظات!

فجأة استعادت الشمعة ضوءها وسمعت صوت نوح عاليًا: «الله أكبر.. الوصية يا آدم»..



وكانت الغرفة مضيئة تمامًا الآن في القبو، وحل ضوء مريح بينما ظهرت رسومات لجوارٍ وعروش على الحائط لم أكن قد رأيتها منذ دخلت.. وعاد الرجل ذو الزي الأسود في الظهور لكنه كان يبتسم هذه المرة وهو يمد يده إليَّ وصرخات نوح تأتي من بعيد: «إنها الآن يا آدم.. لا تفكر.. كل هذا وهم».. لكني لا أعلم لماذا ترددت لحظات في حرقها، انتابني شعور بالفضول لمعرفة السر، كما أن بعض الجواري بدأت تخرج من فوق الجدار وهي تتمايل في رقص ممتع.. فكرت لو أني نظرت إلى التعويذة للحظات وكنت أعلم كما قال الحارس أن العاقبة وخيمة، لكن أحقًا هي سبب كل هذه الشرور؟ ماذا لو امتلكتها؟ هل أتحكم فيمن حولي؟ أريد أن أعرف ماذا تحتويه وهل كان تقييمه صائبًا كل هذا الزمن؟ تردد قلبي وعقلي، تذكرت جهود جدي الأكبر ولم أرد أن أخذله، لكن وقف فضولي عائقًا للحظات أخرى. وكان عدد الجواري يزداد من حولي والرجل ذو الزي الأسود يبتسم أكثر كاشفًا عن أسنان بيضاء ملطخة بالدم..

ثم سمعت صوت «عبدالله» من خلفي لم أدر كيف دخل وهو يردد حازمًا بصوت قاطع: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[1]، حينها أفقت من وهمي الذي سيطر علي، وعاد الرجل

---

(١) [ص: ٢٦].



يصرخ من جديد ويضرب رأسه بالحائط، وتلاشت الرسومات من على الجدران ومعها اختفت الجواري الوهمية، وخفت النور مرة أخرى فلم أتردد وقربت الشمعة إلى التعويذة مباشرة، ظلت تحترق في صمت والصراخ والعويل قد ملأ القبو وما حوله، ظللت أنا ونوح نردد «الله أكبر» إلى أن احترقت التعويذة حتى آخرها وتوقفت الأصوات إلا من كلمات «الله أكبر».

جلست لاهثًا في النهاية بعد أن هدأ كل شيء، ثم قمت بعد فترة إلى نوح بالخارج فرحًا، وصعدنا إلى «عبدالله» بالبشرى، دخلنا فوجدناه ينظر إلى سارة نظرة ملؤها الحب، أشار إليها وإلى نوح الذي وجم لما رآه واحتضنه، نظر إلي مُتبسمًا وقال: ﴿وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[1]، وسأل «نوحٌ» عما حدث فقالت سارة إنه ضحى بنفسه ودخل القبو ليعاون آدم وهنا أسلم «عبدالله» روحه لله في طمأنينة، وكانت آخر كلماته: ﴿وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[2].

بكى نوح في صمت وهو يردد: «إنا لله وإنا إليه راجعون»، تركنا زوجته معه خارج الغرفة، بقيت معه لبرهة من الوقت ثم أردت أن أبقى مع نوح لكنه لم يوافق، تحدث وقد غلبته دموعه الكثيرة:

---

(١) [المائدة: ٨٤].

(٢) [المائدة: ٨٤].



- معلش يا آدم مش هينفع تكون موجود دلوقتي.

- أنا مش عايز أسيبك في يوم زي ده..

- صدقني فوق طاقتك.. اسمع كلامي يا آدم.

لبيت رغبته وبقيت في غرفتي بعد أن توضأت، بعد دقائق سمعت جلبة كبيرة في البيت، صوت أقدام كثيرة، أعتقد أنني سمعت نحيبًا وبكاءً، خرجت إلى الشرفة فرأيت عم محمد واقفًا في الحديقة ينظر إلى الفيلا عاقدًا ذراعيه، هل علم بموت «عبدالله»؟

لم أنسَ تلك اللحظات التي توقف فيها الزمن قليلًا عندما توقف «عبدالله» عن الحياة، لم أنسَ حزن زوجته المُخلصة عليه وتسليم ابنه لقضاء الله، لكن الغريب أن الأصوات والأقدام ظلت بالمنزل لفترة طويلة ولم تبتعد! جلست أصلي لله شكرًا على نجاتي من كل هذا، وبقيت أقرأ القرآن بتدبر ما استطعت، بعد مرور وقت لم أحسبه ظهر نوح في أحد أركان غرفتي يبدو عليه أثر الحزن، لم أعرف ماذا أفعل، أغلقت كتاب الله وقمت من مكاني لأطمئن عليه:

- أنا مش هعرف أواسيك.. لكن الحاجة اللي تخليك مطمّن إنه مات مؤمن بالله.

ابتسم نوح في صمت فنظرت إليه وقد تملكني الشغف، فلما



رآني بهذه الحالة استرسل في حديثه:

- حقك تعرف هو مدفون فين يا آدم.

أثارني حديثه للغاية، لكنني أحترم قدسية الموت، لكنني سألته في فضول:

- فين؟

- في جنينة الفيلا.

جحظت عيناي للحظات لكنني تمالكت أعصابي، نظرت إليه حينما هممت أن أعلق فأردف هو:

- وصية الحارس مع أمي بتقول إنه حابب يندفن في المكان اللي قضى فيه عمره كله تقريبًا، في البيت اللي اتربى فيه، علشان كده الأصوات اللي سمعتها كانت موجودة لفترة فعلًا، كلنا اتفاجئنا بالكلام ده، لكن انت عارف إن الوصية واجبة النفاذ.

- أكيد... الله يرحمه.

- الله يرحمه.. أنا جاي علشان أشكرك على كل اللي انت عملته وتحملته وقدرت تتفهمه، رغم كل الاختلافات اللي بينًا، أمي كمان بتشكرك وبتطلب منك تسامح «عبدالله» لو كان ضايقك في يوم.

ابتسمت وأردفت في صدق:

- أنا مسامحه من زمان.. لكن انت هتعمل إيه؟



- هرجع مكة لكن هاخد أمي معايا.. وعايز أطلب منك طلب..

- طبعًا يا نوح.

- من فترة للتانية هنيجي نزور والدي، محدش هيحس بينا.. مش هنزعج حد، لكن انت فاهم الموقف.

- أنا مقدرش أقول أي حاجة يا نوح.. إنت عارف.

- أوصيك بالصبر والصلاة في الدنيا يا آدم.. السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

فأردفت مودعًا:

- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.

كانت المرة الأخيرة التي أرى فيها «نوح»، بقيت وحيدًا في المنزل،أعلم الآن أنني وحيد، أتجول في الحديقة وفي الدور العلوي في أي وقت دون خوف، دون النظر إلى أركانه أو إلى سقفه، أتأمل غرفة أبي وأمي التي رأيت فيها «عبدالله» و«سارة» لأول وآخر مرة، هل من السهل أن أتجاوز كل ما مررت به وأمضي في حياتي؟ لم أجرؤ على الحديث عن أي شيء، لن يصدقني أبي الذي لامني كثيرًا عند عودته إلى باسيوس على ما ألحقت بالمنزل من ضرر، كما تعجبت أمي من رؤية الدماء فأقنعتها أنها بقايا سائل أحمر من لعبة طائشة كنت أجربها، لم يتحدث الخفير أو زوجته عن شيء،



لكن لم ينطفئ الحقد في صدر مروان الذي أراد دومًا العيش في مستوى أفضل، لم يعد الخائن حسن صديقي بعد ذلك اليوم.

عندما كنت أحتفل بعيد ميلادي الحادي والثلاثين، سردت بعضًا من هذه الوقائع لزوجتي فلم تصدق..

لكني كلما قلقت في الليل ظننته «نوح» أيقظني وقد قرر زيارتي.. لا أعرف هل سأرى «نوح» مرة أخرى أم لا، لكنني أتمنى له كل الخير في الحياة. وأنتظر كل ليلة ربما يقرر أن يأتي فيها ليزورني كما كنا نفعل في الماضي.

***

تمت


ساحر الكتب



آدم الشلقاني

أحمد سلامة

حسن الجندي

محمد صادق

محمد عصمت

أحمد عبدالمجيد

أحمد الريدي


ساحر الكتب



فهرس الموضوعات

